الأسرار الإلهية في الكنيسة الأرثوذكسية

سـرُّ الشُـكْرِ (الإفْخَارِسْـتِيَا)
أو سـرُّ الشَـرِكَةِ المُقَدَّسَـةِ

المطران/ نقولا أنطونيو

المـطران/ نـقولا أنطونيو
متروبولـيت طنـطا وتوابـعها
والوكيل البطريركي لشؤون الناطقين بالعربية
في مصر

مـقدمـة

يقول نقولا كاباسيلاس في الأسرار: «هي بمثابة أبواب السماء التي بها يُدخِل المسيحُ المؤمنَ إلى ملكوته. إنها أبواب الفردوس، تلك التي أُقفِلت في وجه آدم وقد فتحها المسيحُ من جديد أمامنا لتكون لنا حياة» (شرح القداس الإلهي).

لما كانت أسرار الكنيسة السبعة الإلهية يتقبلها جميع المسيحيين بإرادتهم الشخصية، إشارةً للتعبير الحسي لكلٍّ منهم عن قبوله الإيمان بالرب يسوع المسيح وكنيسته الواحدة الجامعة الحافظة الوديعة المقدسة المُسلَّمَة إليها من الرسل القديسيين. فكلُّ سرٍّ من الأسرار الكنسية شخصيٌّ، إذ أن الحضرة الإلهية تظهر للكنيسة المجتمعة بشكلٍ حسِّي من خلال اقتبال مؤمن واحد لها. لذا فإن النصوص والطقسية التي تُستَخدَم في إتمام الأسرار دائمًا تذكر اسم المؤمن، فعند العماد يقول الكاهن: «يُعمَّد عبدُ الله (فلان)»، وعند المسح بالميرون يقول الكاهن: «يُمسَح عبدُ الله (فلان)»، وعند المناولة يقول الكاهن: «يُناوَل عبد الله (فلان)»، وهكذا في باقي الأسرار المقدسة.

ولما كان من المهم إيضاح تعليم كنيستنا الأرثوذكسية عن كل سر من هذه الأسرار السبعة، التي هي الصورة الحسية التي بها ينال المؤمنون النعمة الإلهية، ليكون للبعض قبول وممارسة أي سر منها ليس قبولًا وممارسة لطقوس وإتمام لشعائر كنسية، بدون إدراك للنتائج غير المنظورة التي ينالها كل ممارس لكل سر من هذه الأسرار من تنقية تبرير وتقديس ومغفرة للخطايا وزرع في جسد المسيح ونوال للروح القدس ومواهبه وتبني لله.

لذا بنعمة الرب يسوع المسيح، الذي أعطاني هذه الخدمة المقدسة لخدمة كنيستنا الأرثوذكسية، أضع هذه السلسلة للأسرار الإلهية السبعة بين أيدي أبنائها لبيان حقائق التعليم الأرثوذكسي لكل سرٍّ من الأسرار، التي جُمِعت من كتب أرثوذكسية مع إضافات لي توضح صحيح التعليم. ذلك أن الأسرار

الكنسية السبعة كانت موضوع اختلافات متعددة بين الكنيسة الأرثوذكسية المقدسة الجامعة وبين سواها من الكنائس.

أهدي هذه السلسلة لكل مَنْ عمل وعلَّم وكتب بتعبٍ واجتهادٍ لإيضاح التعليم الحق للكنيسة الأرثوذكسية إن كان أكليروسيًّا أو علمانيًّا.

المطران/ نقولا أنطونيو
طنطا - يوليو ٢٠١٥

تمهيد

التعليم الأرثوذكسي الأولي عن الأسرار*

تعريف السر والرمز:

من المهم تعريف التعبيرين "سر" و"رمز" بحسب مفهوم كنيستنا الأرثوذكسية.

السر: في خبرة الكنيسة والتقليد الأرثوذكسيَيْن، هو أولاً وقبل أي أمر آخر يعتبر كشفا للطبيعة الحقيقية للخليقة، التي تبقى على سقوطها وعلى وجودها في "هذا العالم"، عالم الله المتطلع إلى الخلاص والفداء وإلى تجلي سماءً جديدة وأرضًا جديدة. وبتعبير آخر أن "السر" بحسب الخبرة الأرثوذكسية يكشف الطابع الأسراري للخليقة؛ لأن العالم إنما خُلق وأُعطي للإنسان لتتحول حياة الخليقة إلى مشاركة في الحياة الإلهية. فإذا كان يمكن أن يتحول الماء إلى غسيل للولادة الجديدة في المعمودية، وإذا كان بعض من أكلنا على الأرض كالخبز والعنب يمكن أن يتحول إلى جسد المسيح ودمه، وإذا كانت مسحة الروح القدس تُمنح بالزيت. أي باختصار إذا كان بمقدورنا التعاطي وكل الأشياء التي في العالم وتقبُلها كهبة من الله وكمشاركة في الحياة الجديدة، فذلك يعود إلى أن القصد من خلق الكون إنما هو إتمام القصد الإلهي "كَيْ يَكُونَ اللهُ الْكُلَّ فِي الْكُلِّ" (١كو ١٥:٢٨).

هذه المقاربة الأسرارية للعالم هي بالضبط مصدر الكونية المنيرة التي تدخل في أدق تفاصيل حياة الكنيسة والتي تطبع التقليد الليتورجي والروحاني الأرثوذكسي. من هنا نفقه الخطيئة سقوطًا للإنسان، ومن خلاله سقوطًا للخليقة من عُلَى هذه الأسرارية. فما كان من المسيح إلا أن أنجز خلاص العالم بأن أعاد إلى هذا العالم تحديدًا وإلى الحياة بأكملها أسراريتها هذه. إنه سر كوني وأخروي في الوقت نفسه [كلمة "أخروية" في اليونانية "εσχατολογία" (إسخاتولوجيا)، وتعني ما هو متعلق بنهاية العالم، والمجيء الثاني للمسيح، وقيامة الأموات، والدينونة العامة، ومصير الإنسان ما بعد الموت]، إنه إعلان ظفر المسيح. وعليه فهذا يعني أن "السر" في الخبرة والتقليد الأرثوذكسيين هو في المقام الأول الكنيسة. وبما أن الكنيسة هي "سر" فهي تُبنى وتُعلَن الشكر (الإفخارستيا) المقدس. والكنيسة ليست، إستنادًا إلى التقليد الآبائي القديم،

---

* الإفخارستيا سر الملكوت، الأب الكسندر شميمن، منشورات النور.

موضوع يقبل التحديد، إنما هي خبرة حياة جديدة . إنها خبرة تكون فيها البنْيَة المؤسسية والتراتبية والحقوقية (الكنسية) والليتورجية... بنْيَة أسرارية، رمزية بجوهرها.

والرمز: في مفهوم الكنيسة الأصلي له والتقليد الأرثوذكسي، هو أن الرمز يشرح حقيقة ما يحدث، وليس إنه يرمز مجازًا إلى ما يحدث. فمعنى "الرمز" في خبرة الكنيسة والتقليد الأرثوذكسيَيْن لم يكن رديفًا لـ"التصوير". إذ يمكن ألا يكون هناك أي شبه، من أي نوع كان، بين الرمز وما يرمز إليه. إن وظيفة "الرمز" الأساسية لا تكمن في التصوير (ما يُفترض ضمنًا غياب ما يُصور)، بل وعلى نقيض ذلك تمامًا، في أنها ترمي أولاً وأخيرًا إلى كشف ما يُرمز إليه وإشراك المؤمنين في هذا الكشف. من هنا، يمكن البعض أن يقول إن ما بين الرمز والحقيقة التي يُرمز إليها هو تواصل أكثر منه تشابه. وهذه المقاربة للرمز تجعلنا ندرك عمق الهوة السحيق بين القديم والحديث.

إستنادًا إلى هذا الأخير (الحديث)، يمكن للرمز أن يكون صورة أو مدلولاً لشيء يختلف كليًا، لا نجده بالفعل في الرمز (كذا الحال بالنسبة للماء التي يشار إليها في الكيمياء بالرمز H^2O). في حين أن الرمز بحسب المفهوم القديم، هو إعلان بل حضور لشيء آخر، يُبرز الطبيعة الأخرى لما يُرمز إليه على أنه تحديدًا آخر، أي على أنها حقيقة لا يمكن في الظروف الراهنة أن تكشف نفسها إلا من خلال الرمز. ما يعني أن لا يمكن الفصل بين الرمز الأصيل والإيمان، فالإيمان هو بالضبط "الدليل على حقيقة وجود الأشياء غير المنظورة"، وهو سعي إلى معرفة وجود هذه الحقيقة الأخرى، وهو أبعد ما يكون عن الاختبار العلمي الذي يحتاج إلى إثبات. لكن في الإمكان ولوجه وتناوله، إنه حقيقة لا يرقى إليها الشك. فإذا كان "الرمز" يفترض وجود الإيمان، فالإيمان بدوره يتطلب رمزًا. والإيمان، خلافًا للإعتقاد البسيط أو المذهب الفلسفي، هو تحديدًا "شركة وعطش إلى الشركة، إنه تجسد وعطش إلى التجسد وإلى اعلان وحضور وإلى فعل حقيقة على أخرى". هذا هو "الرمز" بالضبط.

إن "الرمز"، على نقيض الإستعارة والعلامة. و"السر" يجمع حقيقتين، الأولى: الحقيقة التي تستند إلى إختبار، أو الحقيقة "المنظورة". والثانية: الحقيقة الروحانية، أو "غير المنظورة". وهذا الجمع لا يتم بطريقة منطقية (هذا معناه كذا)، ولا بطريقة التماثل (هذا يماثل لذلك)، ولا وفق علاقة سببية (هذا سببه كذا)، بل إستعلانيًا . كل حقيقة تكشف حقيقة أخرى لكن (وهذا هو المهم) فقط

بقدر ما يكون الرمز نفسه تعبيرًا عن الحقيقة الروحانية وتجسيدًا لها. بتعبير آخر، في "الرمز" الكل يعلن الحقيقة الروحية، وكل شيء فيها ضروري لإعلانها. لكن ما يُكشف ويتجسد ليس كل الحقيقة الروحانية. فـ"الرمز" يبقى جزئيًا مبتورًا دومًا، "لأننا نعلم بعض العلم ونتنبأ بعض التنبؤ" (١كو ١٣:٩)، كما يجمع حقائق لا تقاس، إذ تبقى كل واحدة منها بالنسبة للأخرى "حقيقة أخرى كلية". مهما كان الرمز حقيقيًا، ومهما اتحد والحقيقة الروحانية، فوظيفته ليست إرواء عطشنا بل زيادته، "أَعْطِنا أن نتحد بك حقيقة في اليوم الذي لا يعروه مساء... " (الأنافورا). الهدف من الرمز أن يقدم لنا رؤية ومعرفة تكونان بمثابة عطش وشوق إلى المسيرة الروحية الكاملة.

وإذا كان القداس الإلهي ذو طابع رمزي، فلأن القداس الإلهي تكوَّن وإتخذ هيكليته في بادئ الأمر بصفته رمزًا للملكوت والكنيسة في صعودها إلى السماء، مكملة نفسها في هذا الصعود كجسد للمسيح وكهيكل للروح القدس. كل جديد القداس الإلهي وطابعه الفريد يكمنان بالضبط في طبيعته الأخروية "التي تنتظر المجيء الثاني" والتي تكشف ما سيحصل، فهو إتحاد الملكوت بـ"الدهر الآتي". غير أن رمز الملكوت بامتياز؛ والرمز الذي كمّل كل الرموز، ورمز يوم الرب والفصح والمعمودية وكل الحياة المسيحية "المستمرة مع المسيح في الله" (كو ٣:٢)؛ هو سر الشكر (الإفخارستيا)، السر الذي من أجله أتي المسيح القائم من بين الأموات وسر لقائه والشركة معه "إلى مائدته وفي ملكوته"، السر الذي نتناول منه جسد المسيح ودمه الحقيقيَيْن الإلهيَيْن.

لقد حُجِّم "الرمز" من مفهوم يشرح حقيقة ما يحدث، إلى مفهوم يرمز مجازًا إلى ما يحدث، ويعود السبب الرئيسي في ذلك إلى الانحطاط الذي نال المفهوم الأصيل للرمز في الوجدان المسيحي. منذ نشوء الكنيسة، والإيمان المسيحي يعترف جهارًا ويتمسك بحقيقة إستحالة الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه الحقيقيَيْن الإلهيَيْن. وعليه، فإن أي "خلطة" بين هذه الحقيقة وأي لون من ألوان "الطابع الرمزي" كانت تعتبر تهديدًا لـ"الحدث الحقيقي والفعلي" في سر الشكر (الإفخارستيا)، أي تهديدًا للحضرة الحقيقية للجسد والدم الإلهيَيْن على المائدة. ومن هنا أيضًا، وأخيرًا، محاولات تفسير "حقيقة هذه الإستحالة" باللجوء إلى مقولات أرسطو حول "الجوهر" و"العَرَض" وتحديدها على أنها "إستحالة في الجوهر"؛ هل أن جوهر جسد المسيح يحل محل جوهر الخبز، في حين عَرَض هذا الأخير يحل محل عَرَض جسد المسيح؟. إن هكذا شرح لا يفيد بشيء للمؤمن الذي يعترف كل قداس إلهي بأن "هذا هو جسدك نفسه... وهذا هو دمك

الكريم عينه". أما بالنسبة للعقل، فهو ليس سوى محاولة تفسير غير مفهومة فُرضت على القوانين تَدَّعي (أي محاولة) أنها تستند إليها. وأدى ذلك في نهاية المطاف إلى قطع كل صلة فعلية بين القداس الإلهي نفسه، سواء كان ذلك بتعدد أجزائه أم في وحدته ككل، وبين تحول مواد الخبز والخمر، وتاليًا إلى إستبعاده عمليًا من محاولات تفسير الأسرار.

مَـدخل

في الأسرار السبعة

١- تعريف السر

عندما نسمع كلمة "سر" غالبًا ما يراود ذهننا مفهوم الغموض الذي لا يمكن إيضاحه، أو اللغز الذي لا يمكن فهمه، أو الأحجية التي لا يمكن حلها. يبدو "السر" مرادفًا لـ"لن تفهم أبدًا، لذا لا تفكر"؛ إلا أن هذا لا يطابق مفهوم السر بحسب الإيمان المسيحي، السر المسيحي يختلف بالكلية عن اللغز.

فالقديس بولس عندما يتحدث عن الـ"سر" في رسائله يستخدم بكلمة "Μυστήριον" (Mysterion)، كما في رسالته إلى أهل كولوسي بقوله: "السِّرِّ (τὸ μυστήριον) الْمَكْتُومِ مُنْذُ الدُّهُورِ وَمُنْذُ الأَجْيَالِ، لكِنَّهُ الآنَ قَدْ أُظْهِرَ لِقِدِّيسِيهِ" (كو ١:٢٦). وإذا ما نُظر مليًا إلى المعنى الذي يستعمل فيه هذه الكلمة لَوُجد أنه لا يشير إلى واقع غامض، بل إلى المشروع الخلاصي الذي كان مستترًا في الله منذ خلق العالم، وقد ظهر في الأزمنة الأخيرة في يسوع المسيح. لذا فإن "السر"، في وجهة النظر المسيحية، هو رفيق الحقيقة. فحقيقة المسيحية هي أن "هكَذَا أَحَبَّ اللهُ الْعَالَمَ حَتَّى بَذَلَ ابْنَهُ الْوَحِيدَ، لِكَيْ لاَ يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ، بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ" (يو ٣:١٦)، وهذا بالضبط هو السر.

وقد ترجمت الكلمة اليونانية "Μυστήριον" (Mysterion) الموجودة في كتب العهد الجديد إلى اللغة اللاتينية بكلمة "Sacrament"، وهي كلمة قانونية تعني القَسَم المقدس (قَسَم اليمين في المحاكم اليوم). وطوال ما يزيد على الألف سنة استعملت الكنيسة كلمة "Sacrament" بمعانٍ عديدة، فهي تعني حقائق الإيمان المسيحي التي هي: سر الثالوث الأقدس، وسر التجسد، وسرالفداء. ومن القرن السابع عشر أخذت هذه الكلمة معناها الواضح للدلالة على "السبع علامات المقدسة الكبرى"، أي "الأسرار السبعة". وترجمت كلمة اليونانية "Μυστήριον" (Mysterion) إلى اللغة الإنجليزية بكلمة "Mystery" وليس "Secret".

السر حسب تعريف الاعتراف المستقيم الرأي هو عمل مقدس به تنال نفس المؤمن نعمة الله غير المنظورة تحت علامات منظورة، وهو مرتب من ربنا يسوع المسيح الذي بواسطته ينال النعمة الإلهية كل واحد من المؤمنين، كما يقول القديس يوحنا الذهبي الفم: «لأن المسيح لم يسلمنا شيئًا حِسيًّا، بل سلمنا

بالأشياء الحِسيَّة كل ما أعطانا روحيًّا. هكذا في المعمودية أيضًا؛ أما بالشيء الحِسيّ فتصير منحة الماء، ولكن المُكمل روحيٌّ وهو الولادة والتجديد. لأنك لو كنت بلا جسم لكان سلمك المواهب العديمة الجسم مجردة، ولكن بما أن النفس متحدة بالجسم فقد سلمك العقليات (غير الحسيات) بالحسيات».

وعلى ذلك تكون الأسرار في جوهرها أعمالًا مقدسة مانحة فعلاً النعمة الإلهية للمؤمنين ومن ثمَّ ليست رسومًا للمواعيد الإلهية فقط، بل هي أيضًا أدوات تفعل ضرورة في المتقدمين إليها بواسطة النعمة الإلهية. أما أوصافها الجوهرية حسب تعليم الكنيسة فهي، أولاً: أنها مؤسَّسة من الله. ثانيًا: أنها ذات هيئةٍ أو صورةٍ منظورة أو حسية. ثالثًا: أنها تُناول النعمة الإلهية غير المنظورة لنفوس المؤمنين.

وعليه يُخلص إلى القول: إن "السر" في الحديث عن الأسرار الكنائسية يعني السبيل إلى الولوج إلى عمق حياة الله. الأسرار هي النعمة وقد شاءت أن تضحى ملموسة، يُمكن اختبارها جسديًا، ماديًا وفي التاريخ. الأسرار الكنائسية ليست فوازير وأحاجي، بل هي فيض النعمة والمحبة الإلهية التي لا يمكن سبر عمقها وإدراك جوهرها، ولهذا هي "سر إلهي".

٢- الأسرار وعددها

إن يكن الآباء القديسون ومعلموا الكنيسة لم يذكروا ذكرًا صريحًا عددًا للأسرار محددًا، وإن لم تصل إلى أيدينا مؤلفات منهم تبحث في الأسرار كلها معًا، لكنهم قد بحثوا وذكروا كثيرًا في مؤلفاتهم تارةً سرًّا واحدًا فقط وتارةً إثنين وتارةً ثلاثة كما كانت تقتضي الظروف والغاية من مقالاتهم؛ لكن ينبغي أن نتذكر العادة التي كانت سائدة في الكنيسة بحفظ التعليم السري مكتومًا وتسليمه إلى أهله فقط، كما يؤكد القديس باسيليوس الكبير في رسالته القانونية إلى أمفيلوشيوس حيث يقول: «إن الكنيسة فضلًا عن عقائدها وتعليمها المكتوب تحتفظ ما تسلمته من تقليد الرسل سرًّا». وبعد أن ذكر صريحًا في هذه الرسالة بعض الترتيب مما يتعلق بسر المعمودية والمسحة والشكر، أبدى هذا السؤال: «من أية كتابة أخذنا هذه كلها؟ أليس من هذا التعليم السري غير المشاع الذي حفظه آباؤنا بصمت خالٍ من البحث والاستقصاء، إذ تعلموا حسنًا أن يحفظوا الأسرار الموقرة بصمت؟ لأنه كيف يليق أن يباح بالكتابة تعليم الأشياء التي لا يُسمح لغير كاتميها أن ينظروا إليها؟». ويوحنا الدمشقي يتكلم عن سرين فقط، وديونيسيوس الأريوباغي يحدثنا عن ستة، أما يوشافاط متروبوليت أفسس (في

القرن الخامس عشر) فيذكر عشرة، وهنالك عدد من اللاهوتيين البيزنطيين يتفقون على سبعة أسرار.

عادة تتكلم الكنيسة الأرثوذكسية عن سبعة أسرار، لأنه كما قال اللاهوتيون إن الأسرار السبعة في الكنيسة مقابِلةً ومساويةً في العدد لسبعة مواهب الروح القدس في ملئها، والتي ذكرت في سفر إشعياء النبي (الترجمة السبعينية اليونانية للعهد القديم): "روح الرب. روح الحكمة والفهم. روح المشورة والقوة. روح المعرفة والتقدير. روح مخافة الرب" (إش ١١:٢)، التي تُمنح للمؤمنين بأسرار الكنيسة السبعة. ومقابِلةً أيضًا للخبزات السبع التي أشبع الرب بها إلوفًا من البشر (مت ١٥:٣٦-٣٨)، وللمنارات الذهبية السبع التي رأى يوحنا مُشاهد الأسرار ابن الإنسان في وسطها (رؤ ١:١٢ و١٣)، وللكواكب السبعة التي كان مخلصنا وقتئذٍ ضابطًا إياها في يده (رؤ ١٦)، وللأختام السبعة التي كان مختومًا بها الكتاب الذي رآه في يمين الله (رؤ ٥:١)، وللأبواق السبعة التي أُعطيت للملائكة السبعة الواقفين قدام الله بعد فتح ذلك الكتاب السري (رؤ ٨:١ و٢). كذلك لأن "الرقم سبعة" يرمز إلى الكمال والملء ويُعتبر ذا كرامة، ذلك أنه عند اليهود آخر أيام الأسبوع هو يوم السبت، وهو اليوم السابع الذي باركه الله وقدسه وفيه استراح بعد أن أُكملت السماوات والأرض.

والأسرار المُقَدَّسة السبعة هي: المعمودية، المسحة (الميرون)، الشركة (التناول)، التوبة، الكهنوت، الزيجة وصلاة الزيت. فبالمعمودية، يُوْلد الإنسان ولادة ثانية سرية للحياة الروحية. وبالمسحة، يَنال النعمة التي تُنميه وتُثبته في الحياة الروحية. وبالشركة، يُتْحَد روحيًّا مع يسوع المسيح نفسه. وبالتوبة، يُشْفَى من أمراضه النفسانية وهي الخطايا. وبالكهنوت، يَنال نعمة بها يُجَدِّد ولادة الآخرين الروحية بواسطة تكميل وتعليم كلام الله. وبالزيجة، يَنال النعمة المقدِّسة السيرة الاقترانية للولادة الجسدية ولتربية الأولاد مسيحيًا. وبصلاة الزيت، ينال شفاء الأمراض النفسانية والجسدانية أيضًا.

غير أنه حين التحدث عن الأسرار السبعة، فلا ينبغي أن تُفصل عن أعمال أخرى تتخذ هي بدورها طابع الأسرار، أي كل الخدم التقديسية: كتبريك المياه في عيد الظهور الإلهي، صلاة تقديس المياه الصُغرى لتبريك المنازل، مسح الكنائس بالزيت وقت تدشينها، ارتداء الإسكيم الرهباني، وخدمة الجناز... الخ؛ ففي جميع الخدم هذه، هنالك إشارة منظورة ونعمة روحية غير منظورة. والكنيسة الأرثوذكسية تستخدم أيضًا عددًا كبيرًا آخر من الخدم التبريكية الصغيرة التي هي من طبيعة الأسرار المقدسة: كالصلاة على القمح والخمر

والزيت والفاكهة، ومباركة الحقول والمساكن والأشياء المختلفة. لهذه الخدم الصغيرة ومعظم الأحيان هدف عملي واقعي، إذ توجد صلوات لتكريس السيارات والقاطرات وحتى من أجل القضاء على الديدان المؤذية. وليس ثمة فرق جذري بين الأسرار الأساسية وأفعال التكريس هذه، إذ يجب أن يُنظر للحياة المسيحية كوحدة، وكسر واحد كبير يجري التعبير عن مختلف جوانبه من خلال مجموعة من الصيغ والأساليب، بعضها يمارس مرة واحدة فقط في حياة الإنسان، والبعض الآخر قد يمارس كل يوم تقريبًا.

٣- الشروط المطلوبة لتتميم الأسرار:

يُطلب لتتميم كل سر من الأسرار ثلاثة شروط. أولاً: المادة الملائمة لتتميم السر، مثل الماء للمعمودية والخبز والنبيذ للشركة والزيت للمسحة وغير ذلك من سائر الأسرار. ثانيًا: أسقف، أو كاهن، مُشرطن قانونيًا. ثالثًا: استدعاء الروح القدس بالعبارات المعينة لتقديس السر من الأسقف، أو الكاهن، بقوة وحلول الروح القدس.

سِـرّ الشُـكر (الإفْخَارِسْـتِيَا)
(Ευχαριστήρια)

الباب الأول

الكنيسة والسر، رتبته بين الأسرار، ماهيته، وأسمائه

١- إرتبط سر الشكر بالكنيسة

أقول: {{سر الشكر (الإفخارستيا)، هو "سر الأسرار"، إنه حدث الفصح فيه يحقق الروح القدس لأجلنا فصح المسيح. وهو مائدة الرب، التي يقدم فيها المسيح نفسه مأكلًا ومشربًا حقيقيَيْن في ذبيحة غير دموية. إنه إشتراك في جسد الرب ودمه، وباستدعاء الروح القدس يصبح سر الشكر تتمة للعشاء السري. وفي الروح القدس وبالروح القدس يتم حضور الرب فيه، وفي الروح القدس وبالروح القدس نصبح مساهمين في جسد المسيح ودمه، وفي الروح القدس وبالروح القدس وحلوله غير المنظور يصبح الخبز والنبيذ المُقدَمَيْن جسد المسيح الطاهر نفسه ودمه الكريم عينه. إن جسد الرب ودمه الكريمان هما الغذاء للذي اعتمد على اسم الثالوث الأقدس وختم بالروح القدس. وسر الشكر، الذي يُقام في سياق الاجتماع الليتورجي - الإفخارستي (القداس الإلهي)، هو التعبير الأوضح عن سر الكنيسة، جسد يسوع المسيح.

فالكنيسة هي التي تُقيم سر الشكر (الإفخارستيا)، وسر الشكر هو الذي يُشكل الكنيسة ويُوحِد أعضائها ويُغذيهم بالحياة، فهو سر الجماعة ووحدتها وترابطها. كما أنه هو الذي يصنع الكنيسة، والكنيسة بدورها تصنع سر الشكر، ورئيس الكهنة أو الكاهن يستحضر فقط ذبيحة يسوع المسيح ويجعلها أمام الآب بالروح القدس، كما يقول في قداس باسيليوس الكبير وقداس يوحنا ذهبي الفم: «(أيها الآب) إذا وضعنا رسمي جسد ودم مسيحيك المقدسين». ويسوع المسيح هو الذي يُشرِك القائمين على السر في الخدمة الأسرارية؛ لأن الكاهن الأعظم الأوحد هو يسوع المسيح المذبوح والقائم في المجد على المذبح السماوي. كما يردد رئيس الكهنة، أو الكاهن، في القداس الإلهي بقوله: «نشكرك أيضًا من أجل هذه الخدمة التي ارتضيت أن تتقبلها من أيدينا». وكما يقول أيضًا: «يا حمل الله

وابنه الرافع خطيئة العالم، أيها العجل البريء من العيب والغير القابل نير الخطيئة والمذبوح من أجلنا طوعًا... جعلتنا شركاء في أسرارك السماوية المرهوبة المتعذر النطق بها وهي جسدك المقدس ودمك الكريم». كما أن القداس الإلهي في الصلاة التي يرددها رئيس الكهنة أو الكاهن، يوضح أن يسوع المسيح هو نفسه المعطي جسده ودمه الحقيقِيَيْن الإلهيَّيْن للمتقدمين للتناول كما أعطاهما لتلاميذه، بقوله: «وهلم لتقديسنا أيها الجالس في الأعالي مع الآب، والحاضر ههنا معنا غير المنظور، وارتضي أن تناولنا بيدك العزيزة جسدك الطاهر، ودمك الكريم، وبِنَا لكل شعبك». وعندما يتقدم القائم على إتمام السر، الأسقف أو الكاهن، إلى التناول من القُدُسات يقول: «أنا الحقير في رؤساء الكهنة (فلان) يُناول... لغفران خطاياي». فالأسقف يقول: "يُناوَل"، وليس "أتناوَل"؛ لأنه يَتناوَل القُدُسات الإلهية من يد مؤسس السر الذي هو الرب يسوع المسيح، الذي أعطى بنفسه جسده ودمه الإلهيين تحت شكل الخبز والنبيذ لتلاميذه، وليس يُناوِل نفسه بنفسه. وبعد أن يَتناوَل، بالأصح يُناول له، يُناوِل خدام الهيكل من الكهنة والشمامسة بقوله: «يُناوَل الكاهن (فلان)، أو الشماس (فلان)»، وبعد ذلك يُناوِل الشعب بقوله أيضًا: «يُناوَل عبد الله (فلان)»، ولا يقول: "أُناول"؛ لأن الذي يُناول القُدُسات الإلهية للكاهن وللشماس وللشعب هو أيضًا مؤسس السر الذي هو الرب يسوع المسيح}}.

٢- إرتباط سر الشكر بسر المعمودية وسر المسحة

بسر المعمودية ندخل في مُلك نعمة ربنا يسوع المسيح مُطَهَّرين ومُبَرَّرين ومولودين ولادة ثانية للحياة الروحية؛ وبسر المسحة ننال الروح القدس ومواهبه الضرورية لتقويتنا وتقدمنا في الحياة الروحية؛ وبسر الشكر، لهذه الغاية نفسها، يمنحنا مأكلًا ومشربًا خلاصيًا، جسد ودم ربنا يسوع المسيح ذاته، لكي باشتراكنا بهما نتحد روحيًا مع ينبوع الخلاص نفسه. لذا تسلمت الكنيسة الأرثوذكسية أن تُتمم لأبنائها الجُدد سر الشكر بعد تعميدهم ومسحها إياهم بالميرون المقدس، كما ورد في أوامر الرسل (كتاب ٧ فصل ١٢).

وكما يقول جناديوس: «وإن كان الأولاد المعمدون طرشًا لا يقدرون أن يسمعوا التعليم فليجب عنهم أشابينهم وهكذا فليُعمَّدوا حسب العادة وبعد أن يشتركوا بوضع اليد والمسحة فليتقدموا إلى سر الشكر» (في العقائد الكنسية فصل ٥٢).

وقد جرت هذه العادة منذ الأزمنة الأولى إلى الآن؛ لأن الكنيسة فيما هي تدخلهم في مُلك النعمة تمنحهم ملء المواهب التي لابُد منها لحياتهم الروحية، ومن هذا الوقت إلى نهاية حياتهم تستدعيهم مع سائر المؤمنين ليشتركوا في هذا السر الخلاصي.

٣- تعريف سر الشكر وسِمُوَّهُ

سر الشكر أو الشركة هو سرٌّ به يأكل ويشرب المسيحي تحت شكل الخبز والنبيذ جسد ودم يسوع المسيح نفسه. ويعتبر هذا السر أسمى من سائر الأسرار؛

أولاً: هو أسمى لغزارته وسموه عن الإدراك. لأنه في سائر الأسرار يُمكن أن يُدرك أن النعمة الإلهية تفعل بحال غير منظور في الإنسان تحت مادة معينة ومنظورة مادامت تلك المادة في السر، مثل الماء في المعمودية والميرون المقدس في المسحة، تلبث غير متغيرة ولا مستحيلة (أي ولا متحولة). أما سر الشكر الإلهي فالذي يجعله يعلو أكثر من ذلك عن الإدراك هو استحالة (أي تحول) جوهر المادة أيضًا؛ لأن الخبز والنبيذ مع حفظهما شكليهما أو يستحيلان جوهريًا بوجه عجيب إلى جسد ودم يسوع المسيح نفسه، ثم عندما يتناولهما المؤمنون تتولد فيهم بهما نتائج النعمة والبركة.

ثانيًا: هو أسمى لغزارة محبة ربنا يسوع المسيح لنا ولسمو المواهب التي أُهل المؤمنين لها بتناولهم هذا السر، لأنه يمنح بسائر الأسرار للمؤمنين به بعضًا من مواهب النعمة الخلاصية بحسب طبيعة السر المُتمَّم وتلك المواهب منحها للبشر بموته الصليبي. ولكنه في سر الشكر يُقدم لهم غذاءً شخصه الإلهي، أي جسده ودمه اللذان بتناولهما يتحد المؤمنون بلا واسطة مع ربهم ومخلصهم الذي هو يسوع المسيح النعمة الخلاصية نفسها.

ثالثًا: هو أسمى لأن كل سر آخر من حيث هو سر ينحصر في أن يفعل فعله الخلاصي في الإنسان الذي يُتمَّم عليه فقط، لكن سر الشكر الإلهي فضلاًعن كونه أكثر سموًّا عن الإدراك وأكثر خلاصًا بين جميع الأسرار هو أيضًا ذبيحة حقيقية نحو الله تُقدَّم له كفارة عن الجميع أحياءً وأمواتًا.

٤- أسماء سر الشكر الإلهي

منذ القديم سُمي بأسماء متنوعة. في الكتاب المقدس:

أ- "شكرًا"، وهذه اللفظة مأخوذة من شكر الرب، كما يقول فيه متى الإنجيلي "وَأَخَذَ الْكَأْسَ وَشَكَرَ وَأَعْطَاهُمْ" (مت ٢٦:٢٧)، ولوقا الإنجيلي: "وَأَخَذَ خُبْزًا وَشَكَرَ وَكَسَّرَ وَأَعْطَاهُمْ" (لو ٢٢:١٩).

ب- "عشاءً ربانيًّا"، كما يقول فيه الرسول: "فَحِينَ تَجْتَمِعُونَ مَعًا لَيْسَ هُوَ لأَكْلِ عَشَاءِ الرَّبِّ" (١كو ١١:٢٠).
جـ - "مائدة الرب"، كما يصفه بولس بقوله: "لاَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَشْتَرِكُوا فِي مَائِدَةِ الرَّبِّ" (١كو ١٠:٢١).
د- "سريًّا وإلهيًّا"، لأنه تأسس في عشاء الرب السري مع تلاميذه.
هـ- "مائدة مقدسة وسرية"، لأن جسد الرب يسوع ودمه يُقدمان به مأكلًا وخلاصًا.

كما أطلق عليه آباء الكنيسة أسماء أخرى: ثاودريتس يُسميه "مائدة السيد"، أوسابيوس يُسميه "مائدة المسيح"، إيبوليتس يُسميه "مائدة كريمة"، يوحنا الذهبي الفم يُسميه "مائدة مقدسة"، وأغسطينوس يُسميه "سر المذبح". كما أن ثايفيلوس يُسميه "خبز الرب"، أغسطينوس يُسميه "خبز الله"، كيرلس الأورشليمي يُسميه "خبز سماوي" و"خبز جوهري". كذلك أوامر الرسل تُسميه "جسد الرب"، أوسابيوس يُسميه "جسد الخلاصي"، كبريانوس يُسميه "جسد مقدس"، وكيرلس الأورشليمي يُسميه "جسد المسيح". كما أطلقوا عليه غيرها من الأسماء: أوامر الرسل تُسميه "كأس الحياة"، كبريانوس يُسميه "كأسًا مخوفة"، الذهبي الفم يُسميه "سر الكأس"، وباسيليوس الكبير يُسميه "كأس البركة". وأيضًا أوامر الرسل تُسميه "دم المسيح"، وإيبوليتوس يُسميه "دم كريم". كما يُسميه إيسودروس البيلوسي "شركة"، ويوحنا الدمشقي "إتحادًا".

وقد سُميّ من الآباء: "شركة واتحادًا"، لأنه بالتناول من هذا السر يصبح الجميع مع الرب يسوع المسيح واحدًا؛ و"كأس الحياة الخلاصي"، وذلك من نتائج النعمة المفعولة في المتناولين بواسطة سر الشكر؛ وكذلك "أسرارًا مقدسة" و"وأسرارًا لهيئة مخوفة سماوية"، وذلك من طبيعته وعلوه على إدراك؛ وأيضًا "ذبيحة مقدسة سرية روحية"، بما أنه ذبيحة غفران حقيقية مقدمة لله.

الباب الثاني

الوعد الإلهي بسر الشكر وزمن تأسيسه

شاء مخلصنا يسوع المسيح أن يُهيء الناس لقبول سر الشركة السامي الرهيب قبل تأسيسه إياه بزمن، ومن القديس يوحنا الإنجيلي نعلم بالتدقيق وعد المخلص بسر الشركة. كما وعد الناس به علنًا وأوضح لهم طبيعته وقوته وضرورته ولما حان الزمان أقام في الكنيسة هذا السر الخلاصي، ومن الإنجليين الثلاثة الأولين ومن القديس بولس الرسول نعلم زمن تأسيسه للسر.

١- الوعد الإلهي بسر الشركة

إن القديس يوحنا الإنجيلي يذكر أولاً الحدث الذي فيه سُرَّ الرب أن يعلن الوعد بسر جسده ودمه، والذي فيه صنع الرب يومًا ما عجيبًا عظيمًا في مكان ليس بعيدًا عن بحيرة طبرية إذ أشبع خمسة آلاف رجل من خمسة أرغفة وسمكتين (يو ٦:١-١٣). والذين شاهدوا عيانًا هذا العجب اندهشوا دهشة عظيمة حتى أنهم صرخوا قائلين: "إِنَّ هذَا هُوَ بِالْحَقِيقَةِ النَّبِيُّ الآتِي إِلَى الْعَالَمِ" (يو ٦:١٤)؛ ولأن أفكارهم الباطلة في مُلك المسيح أنه مُلك أرضي كانت تتغلب عليهم كانوا مزمعين "أَنْ يَأْتُوا وَيَخْتَطِفُوهُ لِيَجْعَلُوهُ مَلِكًا" (يو ٦:١٥). لكن بما أن الإله "المتأنس لَمْ يَأْتِ لِيُخْدَمَ بَلْ لِيَخْدِمَ" (مت ٢٠:٢٨)، "انْصَرَفَ أَيْضًا إِلَى الْجَبَلِ وَحْدَهُ. وَلَمَّا كَانَ الْمَسَاءُ نَزَلَ تَلاَمِيذُهُ إِلَى الْبَحْرِ، فَدَخَلُوا السَّفِينَةَ وَكَانُوا يَذْهَبُونَ إِلَى عَبْرِ الْبَحْرِ إِلَى كَفْرِنَاحُومَ" (يو ٦:١٥-١٧)، حيث أتي إليهم وهم في السفينة "يَسُوعَ مَاشِيًا عَلَى الْبَحْرِ" (يو ٦:١٩). أما الجمع فبعد أن أشبعه الرب من الخبزات القليلة بشكل عجائبي كان يتبعه برًا وبحرًا إلى كفر ناحوم (يو ٦:٢٣-٢٥). ولأن الرب كان عالمًا أن اليهود لم يتبعوه لأنهم رأوا الآية بل لأنهم أكلوا خبزًا وشبعوا قال لهم صريحًا: "الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: أَنْتُمْ تَطْلُبُونَنِي لَيْسَ لأَنَّكُمْ رَأَيْتُمْ آيَاتٍ، بَلْ لأَنَّكُمْ أَكَلْتُمْ مِنَ الْخُبْزِ فَشَبِعْتُمْ" (يو ٦:٢٦)، مريدًا بذلك أن يجذب أفكارهم وينقل عقولهم من القوت الجسدي إلى قوتٍ آخر روحي وغير فاسد. وهكذا وعدهم بسر الشكر بقوله لهم: "اِعْمَلُوا لاَ لِلطَّعَامِ الْبَائِدِ، بَلْ لِلطَّعَامِ الْبَاقِي لِلْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ الَّذِي يُعْطِيكُمُ ابْنُ الإِنْسَانِ، لأَنَّ هذَا اللهُ الآبُ قَدْ خَتَمَهُ" (يو ٦:٢٧). هذه هي الأقوال التي بها أوضح الرب أمام جمهور غفير من اليهود عن وعده بالخبز السماوي.

وفي إشارة إلى نفسه أضاف بقوله لليهود: "أَنْ تُؤْمِنُوا بِالَّذِي هُوَ (الله الآب) أَرْسَلَهُ" (يو ٦:٢٩)، فقال له هؤلاء ردًا عليه: "فَأَيَّةَ آيَةٍ تَصْنَعُ لِنَرَى وَنُؤْمِنَ بِكَ" (يو ٦:٣٠) وذكروه بأن موسى الإلهي أعطى آبائَهم في البرية خبز السماء أي الْمَنَّ علامة على إرساله من قِبل الله (يو ٦:٣١)، فأجابهم قائلًا: "الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: لَيْسَ مُوسَى أَعْطَاكُمُ الْخُبْزَ مِنَ السَّمَاءِ، بَلْ أَبِي يُعْطِيكُمُ الْخُبْزَ الْحَقِيقِيَّ مِنَ السَّمَاءِ" (يو ٦:٣٢). وإذ سألوه قائلين: "يَا سَيِّدُ، أَعْطِنَا فِي كُلِّ حِينٍ هذَا الْخُبْزَ" (يو ٦:٣٤)، أوضح لهم بجلاء وعده بسر الشكر قائلاً: "أَنَا هُوَ خُبْزُ الْحَيَاةِ. مَنْ يُقْبِلْ إِلَيَّ فَلاَ يَجُوعُ، وَمَنْ يُؤْمِنْ بِي فَلاَ يَعْطَشُ أَبَدًا" (يو ٦:٣٥). فاندهش اليهود من قول يسوع "أَنَا هُوَ خُبْزُ الْحَيَاةِ الَّذِي نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ"، وكانوا يقولون: "أَلَيْسَ هذَا هُوَ يَسُوعَ بْنَ يُوسُفَ، الَّذِي نَحْنُ عَارِفُونَ بِأَبِيهِ وَأُمِّهِ؟ فَكَيْفَ يَقُولُ هذَا: إِنِّي نَزَلْتُ مِنَ السَّمَاءِ؟" (يو ٦:٤٢)، لكن يسوع زاد كلامه تأكيدًا لهم وقابلهم بهذه الشهادة قائلًا: "اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: مَنْ يُؤْمِنُ بِي فَلَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ. أَنَا هُوَ خُبْزُ الْحَيَاةِ. آبَاؤُكُمْ أَكَلُوا الْمَنَّ فِي الْبَرِّيَّةِ وَمَاتُوا. هذَا هُوَ الْخُبْزُ النَّازِلُ مِنَ السَّمَاءِ، لِكَيْ يَأْكُلَ مِنْهُ الإِنْسَانُ وَلاَ يَمُوتَ. أَنَا هُوَ الْخُبْزُ الْحَيُّ الَّذِي نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ. إِنْ أَكَلَ أَحَدٌ مِنْ هذَا الْخُبْزِ يَحْيَا إِلَى الأَبَدِ. وَالْخُبْزُ الَّذِي أَنَا أُعْطِي هُوَ جِسْمِي (ὑ σάρξ μού) الَّذِي أَبْذِلُهُ مِنْ أَجْلِ حَيَاةِ الْعَالَمِ" (يو ٦:٤٧-٥١)، فخاصم اليهود بعضهم بعضًا قائلين: كَيْفَ يَقْدِرُ هذَا أَنْ يُعْطِيَنَا جِسْمَهُ (τὴν σάρκα αὐτοῦ) لِنَأْكُلَ؟ (يو ٦:٥٢). فكرر يسوع كلامه قائلاً لهم بكل صراحة: "الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ، إِنْ لَمْ تَأْكُلُوا جِسْمَ (τὴν σάρκα) ابْنِ الإِنْسَانِ وَتَشْرَبُوا دَمَهُ، فَلَيْسَ لَكُمْ حَيَاةٌ فِيكُمْ. مَنْ يَأْكُلُ جِسْمِي (μου τὴν σάρκα) وَيَشْرَبُ دَمِي فَلَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ، وَأَنَا أُقِيمُهُ فِي الْيَوْمِ الأَخِيرِ، لأَنَّ جِسْمِي (σάρξ μου) مَأْكَلٌ حَقٌّ وَدَمِي مَشْرَبٌ حَقٌّ. مَنْ يَأْكُلْ جِسْمِي (μου τὴν σάρκα) وَيَشْرَبْ دَمِي يَثْبُتْ فِيَّ وَأَنَا فِيهِ. كَمَا أَرْسَلَنِي الآبُ الْحَيُّ، وَأَنَا حَيٌّ بِالآبِ، فَمَنْ يَأْكُلْنِي فَهُوَ يَحْيَا بِي. هذَا هُوَ الْخُبْزُ الَّذِي نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ. لَيْسَ كَمَا أَكَلَ آبَاؤُكُمُ الْمَنَّ وَمَاتُوا. مَنْ يَأْكُلْ هذَا الْخُبْزَ فَإِنَّهُ يَحْيَا إِلَى الأَبَدِ" (يو ٦:٥٢-٥٨).

فكثيرون من تلاميذه عندما سمعوا هذا الوعد العجيب بالسر الرهيب كانوا يصرخون قائلين: "إِنَّ هذَا الْكَلاَمَ صَعْبٌ، مَنْ يَقْدِرُ أَنْ يَسْمَعَهُ؟" (يو ٦:٦٠)، ومن ذلك الوقت "رَجَعَ كَثِيرُونَ مِنْ تَلاَمِيذِهِ إِلَى الْوَرَاءِ، وَلَمْ يَعُودُوا يَمْشُونَ مَعَهُ" (يو ٦:٦٦). لكن تلاميذه الحقيقيين الاثني عشر قبلوا بإيمان تام تلك الأقوال واعترفوا بفم بطرس قائلين: "يَا رَبُّ، إِلَى مَنْ نَذْهَبُ؟ كَلاَمُ الْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ عِنْدَكَ، وَنَحْنُ قَدْ آمَنَّا وَعَرَفْنَا أَنَّكَ أَنْتَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ الْحَيِّ" (يو ٦:٦٨ و٦٩).

هكذا هيأ الرب تلاميذه بقبول سر الشكر الرهيب بوعده الأكيد حتى أنهم عندما أسسه وسلمه لهم لم يظهر أحد منهم إشارة للشك في حقيقته ولا سأله سؤالًا واحدًا عنه، لأنهم كانوا مستعدين ومتأهبين لقبول هذا السر العظيم السامي.

٢- زمن تأسيس الرب لسر الشكر

لقد سُرَّ الرب أن يؤسس سر الشكر الإلهي في ظروف مهمة جدًا وكان قُرب عيد الفصح اليهودي الذي هو الأكثر اعتبارًا في جميع أعياد العهد القديم. والذي كان يرسم حَمَل الخلاص الذي حسب مشيئة الله الآب، كما يقول بولس الرسول: "كَانَ يَجِبُ أَنْ يَتَأَلَّمَ مِرَارًا كَثِيرَةً مُنْذُ تَأْسِيسِ الْعَالَمِ، وَلكِنَّهُ الآنَ قَدْ أُظْهِرَ مَرَّةً عِنْدَ انْقِضَاءِ الدُّهُورِ لِيُبْطِلَ الْخَطِيَّةَ بِذَبِيحَةِ نَفْسِهِ ذُبح منذ تأسيس العالم" (عب ٩:٢٦).

وكانت قد قرُبَت أيضًا البرهة التي فيها "حَمَلُ اللهِ الَّذِي يَرْفَعُ خَطِيَّةَ الْعَالَمِ" (يو ١:٢٩) وكان مزمعًا أن يقدم نفسه ذبيحة حقيقية على الصليب. ففي ذلك الوقت قبل أن يجتمع اليهود ليُعَيِّدوا فصحهم بيوم واحد أرسل الرب إثنين من تلاميذه إلى أورشليم ليعدُّوا الفصح (مر ١٤:٣-١٦)، و"فِي اللَّيْلَةِ الَّتِي أُسْلِمَ فِيهَا" (١كو ١١:٢٣) حضر مع تلاميذه الإثني عشر في عُلية صهيون وإذ رأى كل شيء مُعدًّا مثلما كان يريد إتكأ معهم ليأكل الفصح. فتمم أولاً فصح العهد القديم قائلاً: "شَهْوَةً اشْتَهَيْتُ أَنْ آكُلَ هذَا الْفِصْحَ مَعَكُمْ قَبْلَ أَنْ أَتَأَلَّمَ" (لو ٢٢:١٥)، ثم غسل أرجل تلاميذه (يو ١٣:٤-١٥) مُعلمًا إياهم فضيلة التواضع العجيبة ومحبة بعضهم لبعض، وجدد النبوة عن آلامه العتيدة موضحًا مَنْ هو المزمع أن يُسلمه (مت ٢٦:٢١-٢٥). وأخيرًا سلمهم سر الشكر، حيث يقول كل من متي ومرقس: "وَفِيمَا هُمْ يَأْكُلُونَ أَخَذَ يَسُوعُ الْخُبْزَ، وَبَارَكَ وَكَسَّرَ وَأَعْطَى التَّلاَمِيذَ وَقَالَ: خُذُوا كُلُوا. هذَا هُوَ جَسَدِي (τὸ σῶμά μου). وَأَخَذَ الْكَأْسَ وَشَكَرَ وَأَعْطَاهُمْ قَائِلاً: اشْرَبُوا مِنْهَا كُلُّكُمْ، لأَنَّ هذَا هُوَ دَمِي الَّذِي لِلْعَهْدِ الْجَدِيدِ الَّذِي يُسْفَكُ مِنْ أَجْلِ كَثِيرِينَ لِمَغْفِرَةِ الْخَطَايَا" (مت ٢٦:٢٦-٢٨) و(مر ١٤:٢٢-٢٤)، وحيث يقول كذلك لوقا: "وَأَخَذَ خُبْزًا وَشَكَرَ وَكَسَّرَ وَأَعْطَاهُمْ قَائِلاً: هذَا هُوَ جَسَدِي (τὸ σῶμά μου) الَّذِي يُبْذَلُ عَنْكُمْ. اِصْنَعُوا هذَا لِتِذْكَارِي (τὴν ἐμὴν ἀνάμνησιν). وَكَذلِكَ الْكَأْسَ أَيْضًا بَعْدَ الْعَشَاءِ قَائِلاً: هذِهِ الْكَأْسُ هِيَ الْعَهْدُ الْجَدِيدُ بِدَمِي الَّذِي يُسْفَكُ عَنْكُمْ" (لو ٢٢:١٩ و٢٠). وكما يقول في ذلك أيضًا بولس الرسول: "لأَنَّنِي تَسَلَّمْتُ مِنَ الرَّبِّ مَا سَلَّمْتُكُمْ أَيْضًا إِنَّ الرَّبَّ يَسُوعَ فِي اللَّيْلَةِ الَّتِي أُسْلِمَ فِيهَا، أَخَذَ خُبْزًا وَشَكَرَ فَكَسَّرَ، وَقَالَ خُذُوا كُلُوا هذَا هُوَ جَسَدِي

(μού ἐστιν τὸ σῶμά) الَّذِي يُكْسَرُ لأَجْلِكُمُ. اصْنَعُوا هذَا لِتِذْكارِي (τὴν ἐμὴν ἀνάμνησιν) كَذلِكَ الْكَأْسَ أَيْضًا بَعْدَمَا تَعَشَّوْا، قَائِلاً هذِهِ الْكَأْسُ هِيَ الْعَهْدُ الْجَدِيدُ بِدَمِي. اصْنَعُوا هذَا كُلَّمَا شَرِبْتُمْ لِتِذْكارِي (τὴν ἐμὴν ἀνάμνησιν)" (١كو ١١:٢٣-٢٥).

هكذا في وقت واحد كمَّل الرب يسوع المسيح فصح العهد القديم الرمزي، وسلَّم الفصح الحقيقي ذبيحة العهد الجديد غير الدموية التي أمر أن يُصنع تذكرًا له إلى منتهى الدهور ذلك كله تمَّمه يسوع في تلك الليلة عينها التي فيها أُسلم لآلام الصليب.

أقول: {{في النص اليوناني الذي كتب به الإنجيل المقدس ذُكرت كلمتان، الأولى هي: "σάρξ" (sarx)، والثانية هي: "σῶμά" (soma). الكلمة الأولى: "σάρξ"، تعني: "لحم" (للتوضيح، بالإنجليزية Flesh وليس Meat)، و"جسم" و"جسد طبيعي" و"طبيعة بشرية"، وتشير إلى بشرة يسوع المسيح الإنسانية التي يتشارك بها مع جميع البشر. والكلمة الثانية: "σῶμά"، تعني: "جسد" و"جسد حي" و"جسد للمسيح"، وتشير إلى بَشرة يسوع المسيح المُتَألِّهة الخاصة به التي لا يتشارك البشر معه بها. أما في الترجمة العربية للنص اليوناني للإنجيل المقدس لم تُستخدم الكلمتين "جسم" و"جسد"، بل أُستُخدمت كلمة واحدة هي كلمة "جسد"، مما لا يُبيِّن الفرق في بين الكلمتين ويُبيِّن معناهما للقاريء العربي. كما أن الكلمة العربية "جسد" لا تُعطي معنى الكلمة اليونانية "σῶμά" (soma).

فقد أستخدم الرب يسوع المسيح كلمة "σάρξ" (sarx) إشارة منه إلى جسمه الإنساني في حديثه مع اليهود (يو ٦:٤٨-٥٦)، وكان ذلك قبل العشاء الأسراري، يوم الخميس العظيم، عن أن المَنْ السماوي، الخبز النازل من السماء، الذي أُعطي من يَهْوَهْ (الله الآب) للإسرائليين في البرية كان رمزًا لجسمه الإنساني، كونه ابن الإنسان، الذي فيه رآه البشر عند مولده وعندما عايشوه. أما طبيعتة الإلهية، كونه ابن الله، المتحدة في طبيعتة الإنسانية، في هذا الجسم الإنساني، إتحادًا لا متناهيًا فلم تكن مرئية للعيون البشرية. وذلك بقوله لليهود في وعده الإلهي بسر الشكر: "أَنَا هُوَ خُبْزُ الْحَيَاةِ. آبَاؤُكُمْ أَكَلُوا الْمَنَّ فِي الْبَرِّيَّةِ وَمَاتُوا. هذَا هُوَ الْخُبْزُ النَّازِلُ مِنَ السَّمَاءِ، لِكَيْ يَأْكُلَ مِنْهُ الإِنْسَانُ وَلاَ يَمُوتَ. أَنَا هُوَ الْخُبْزُ الْحَيُّ الَّذِي نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ. إِنْ أَكَلَ أَحَدٌ مِنْ هذَا الْخُبْزِ يَحْيَا إِلَى الأَبَدِ. وَالْخُبْزُ الَّذِي أَنَا أُعْطِي هُوَ جِسْمِي ["ἡ σάρξ μού" (y sarx

mou)] الَّذِي أَبْذِلُهُ مِنْ أَجْلِ حَيَاةِ الْعَالَمِ. فَخَاصَمَ الْيَهُودُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا قَائِلِينَ كَيْفَ يَقْدِرُ هذَا أَنْ يُعْطِيَنَا جِسْمَهُ ["τὴν σάρκα αὐτοῦ" (tin sarka aftou)] لِنَأْكُلَ؟ فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ، إِنْ لَمْ تَأْكُلُوا جِسْمَ ["τὴν σάρκα" (tin sarka)] ابْنِ الإِنْسَانِ وَتَشْرَبُوا دَمَهُ، فَلَيْسَ لَكُمْ حَيَاةٌ فِيكُمْ. مَنْ يَأْكُلُ جِسْمِي ["μου τὴν σάρκα" (mou tin sarka)] وَيَشْرَبُ دَمِي فَلَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ، وَأَنَا أُقِيمُهُ فِي الْيَوْمِ الأَخِيرِ، لأَنَّ جِسْمِي ["σάρξ μου" (sarx mou)] مَأْكَلٌ حَقٌّ وَدَمِي مَشْرَبٌ حَقٌّ. مَنْ يَأْكُلْ جِسْمِي (μου τὴν σάρκα) وَيَشْرَبْ دَمِي يَثْبُتْ فِيَّ وَأَنَا فِيهِ" (يو ٦:٤٨-٥٦).

أما في العشاء الأسراري، يوم الخميس العظيم وقت تأسيس يسوع المسيح سر الشكر، الذي فيه لم يعطي تلاميذه خبزًا أرضيًا ليأكلوا ونبيذًا أرضيًا ليشربوا، بل أعطاهم أن يأكلوا ويشربوا جسده ودمه الحقيقيَيْن الإلهيَيْن المقدمَيْن منه هو نفسه لهم تحت شكل الخبز والنبيذ، فقد استخدم الرب كلمة "σῶμά" (soma)، إشارة منه إلى جسده الحي المُتَأَلِّه الخاص به، كما ذكر لوقا الإنجيلي في بشارته، بقوله: "وَأَخَذَ (يسوع) خُبْزًا وَشَكَرَ وَكَسَّرَ وَأَعْطَاهُمْ (تلاميذه) قَائِلاً هذَا هُوَ جَسَدِي ["τὸ σῶμά μου" (to soma mou)] الَّذِي يُبْذَلُ عَنْكُمْ. اِصْنَعُوا هذَا لِتِذْكَارِي. وَكَذلِكَ الْكَأْسَ أَيْضًا بَعْدَ الْعَشَاءِ قَائِلاً هذِهِ الْكَأْسُ هِيَ الْعَهْدُ الْجَدِيدُ بِدَمِي الَّذِي يُسْفَكُ عَنْكُمْ" (لو ٢٢:١٩و٢٠)، وكذلك كما ذكر كل من متى ومرقص الإنجيليين في بشارتهما، بقولهما: "وَفِيمَا هُمْ يَأْكُلُونَ أَخَذَ يَسُوعُ الْخُبْزَ، وَبَارَكَ وَكَسَّرَ وَأَعْطَى التَّلاَمِيذَ وَقَالَ خُذُوا كُلُوا. هذَا هُوَ جَسَدِي [" τὸ σῶμά μου" (to soma mou)]. وَأَخَذَ الْكَأْسَ وَشَكَرَ وَأَعْطَاهُمْ قَائِلاً اشْرَبُوا مِنْهَا كُلُّكُمْ، لأَنَّ هذَا هُوَ دَمِي الَّذِي لِلْعَهْدِ الْجَدِيدِ الَّذِي يُسْفَكُ مِنْ أَجْلِ كَثِيرِينَ لِمَغْفِرَةِ الْخَطَايَا" (مت ٢٦:٢٦-٢٨) و(مر ١٤:٢٢-٢٤). وكما ذكر بولس الرسول أيضًا بقوله: "لأَنَّنِي تَسَلَّمْتُ مِنَ الرَّبِّ مَا سَلَّمْتُكُمْ أَيْضًا إِنَّ الرَّبَّ يَسُوعَ فِي اللَّيْلَةِ الَّتِي أُسْلِمَ فِيهَا، أَخَذَ خُبْزًا وَشَكَرَ فَكَسَّرَ، وَقَالَ خُذُوا كُلُوا هذَا هُوَ جَسَدِي (μού ἐστιν τὸ σῶμά) الَّذِي يُكْسَرُ لأَجْلِكُمُ. اصْنَعُوا هذَا لِتِذْكَارِي. كَذلِكَ الْكَأْسَ أَيْضًا بَعْدَمَا تَعَشَّوْا، قَائِلاً هذِهِ الْكَأْسُ هِيَ الْعَهْدُ الْجَدِيدُ بِدَمِي. اصْنَعُوا هذَا كُلَّمَا شَرِبْتُمْ لِتِذْكَارِي" (١كو ١١:٢٣-٢٥).

وعدم الإيمان بهذا، أولاً: يجعل من الرب يسوع المسيح إنسانًا محدودًا وليس إلهًا حر الإرادة. ثانيًا: يضاد تأكيد الرب يسوع المسيح نفسه لتلاميذه في يوم الخميس العظيم، العشاء الأسراري، بأن الخبز المقدم منه لهم ليأكلوا هو

جسده الحقيقي الإلهي، وأن النبيذ المقدم، أيضًا، منه لهم ليشربوا هو دمه الحقيقي الإلهي (مت ٢٦:٢٦-٢٨) و(مر ١٤:٢٢-٢٤).

وفي قول يسوع لتلاميذه: " τοῦτο ποιεῖτε εἰς τὴν ἐμὴν ἀνάμνησιν" (لو ٢٢:١٩). الكلمة اليونانية "τὴν ἐμὴν ἀνάμνησιν" (tin emin anamnisin) معناها "لِتِذْكارِي" وليس "لِذِكْرِي". على هذا فإن قول يسوع لتلاميذه: "τοῦτο ποιεῖτε εἰς τὴν ἐμὴν ἀνάμνησιν"، معناه "اِصْنَعُوا هذَا لِتِذْكَارِي". وهو نفس المعنى في قول بولس: "لأَنَّنِي تَسَلَّمْتُ مِنَ الرَّبِّ مَا سَلَّمْتُكُمْ أَيْضًا إِنَّ الرَّبَّ يَسُوعَ فِي اللَّيْلَةِ الَّتِي أُسْلِمَ فِيهَا، أَخَذَ خُبْزًا وَشَكَرَ فَكَسَّرَ، وَقَالَ خُذُوا كُلُوا هذَا هُوَ جَسَدِي الَّذِي يُكْسَرُ لأَجْلِكُمُ. اصْنَعُوا هذَا لِتِذْكَارِي (τὴν ἐμὴν ἀνάμνησιν) كَذلِكَ الْكَأْسَ أَيْضًا بَعْدَمَا تَعَشَّوْا، قَائِلاً هذِهِ الْكَأْسُ هِيَ الْعَهْدُ الْجَدِيدُ بِدَمِي. اصْنَعُوا هذَا كُلَّمَا شَرِبْتُمْ لِتِذْكَارِي (τὴν ἐμὴν ἀνάμνησιν)" (١كو ١١:٢٣-٢٥).

إن قول يسوع: "اِصْنَعُوا هذَا لِتِذْكَارِي"، هو بمعنى "إصنعوا هذا كلما دعت الحاجة لتستذكروني"؛ لأن "التَّذْكِرة" هي ما تُسْتَذْكَر به الحاجة أو ما يُستحضر به الشيء. فكل ذبيحة إلهية، التي أوصى الرب يسوع المسيح تلاميذه أن يصنعوا كما صنع هو، هي إمتداد وإستمرار للأعمال الخلاصية التي قام بها من أجل العالم، إمتداد لصلبه وقبره وقيامته وصعوده واستباق لمجيئه الثاني. كما أن "التَّذْكِرة" هي استذكار واستحضار وإخبار واعتراف بآلام الرب وموته وقيامته وصعوده إلى السماوات، وهذا يعني تذكر المسيح المصلوب القائم من الأموات، أو تذكر ذبيحته لا كحدثٍ ماضٍ بل تقديم ذبيحة حقيقية حاضرة وعاملة، أي تذكِرة فعّالة متكررة. أما "الذِكْرَى" فهي ذِكر الشيء بعد نسيانه، وتعني مجرد التذكر لأمر نتطلع إليه غائبًا عنا.

على هذا فإن الإفخارستيا ليست إحياء لذكرى ذبيحة المسيح أو تصويرًا خياليًا لها، بل هي الذبيحة الحقيقية عينها. لكنها ليست بذبيحة جديدة، كما أنها ليست تكرارًا لذبيحة الجلثلة إذ أن الحَمَل ذُبح "مرة واحدة وإلى الأبد". جميع عناصر ذبيحة التسبيح، التجسد، والعشاء الأخير، والصلب، والقيامة، والصعود، لا يجري تكرارها في الإفخارستيا، بل هي معاشة من جديد. فالفعل الإلهي نفسه وقع مرة في فترة محددة من التاريخ ويُعاد إحياؤه دائمًا في السر المقدس.

فكل قداس إلهي هو استذكار واستحضار وإخبار واعتراف بآلام الرب وموته وقيامته وصعوده إلى السماوات. كما يوضح ذلك نص القداس الإلهي بأن

الذبيحة غير الدموية، التي أوصى الرب يسوع المسيح أن نصنع كما صنع هو، هي إمتداد وإستمرار للأعمال الخلاصية التي قام بها من أجلنا، إمتداد لصلبه وقبره وقيامته وصعوده وإستباق لمجيئه الثاني، كما توضح الصلاة التي يتلوها متمم السر في قداس القديس باسيليوس الكبير، بقوله: «أيها الإله الآب... ارتضى ابنك الوحيد... وإذ قدسنا بالروح القدس... وقد ترك لنا تذكارات آلامه الخلاصية، التذكارات التي نحن واضعوها الآن... أعطى تلاميذه الرسل القديسين قائلاً: خذوا كلوا هذا هو جسدي (τὸ σῶμά μου)... إشربوا منها كلكم هذا هو دمي... هذا إصنعوه لتذكاري (τὴν ἐμὴν ἀνάμνησιν)، لأنكم كل مرة تأكلون هذا الخبز وتشربون هذه الكأس تُخبرون بموتي وتعترفون بقيامتي. فإذ نحن متذكرون أيها السيد (الآب) آلامه الخلاصية، وصلبه المحي، ودفنه ذا الثلاثة أيام، وقيامته من بين الأموات، وجلوسه عن يمينك أيها الإله الآب، ومجيئه الثاني المجيد المرهوب»}.

الباب الثالث

في قسم المنظورة من سر الشكر

إن قسم سر الشكر المنظور أو المحسوس مؤلفًا من ثلاثة أقسام وهي؛ القسم الأول: المادة المطلوبة للسر، أي الخبز والنبيذ. القسم الثاني: خدمة السر الشريفة بالإجمال، أي القداس الإلهي. القسم الثالث: خدمة القسم الجوهري للسر الشريفة، أي الكلام الجوهري.

القسم الأول: المادة المطلوبة للسر

أولاً: المادة الأولى المطلوبة للسر هي الخبز

إن الخبز يجب أن يكون من القمح المختمر النقي في جوهره وصناعته؛ لأن هذا تقتضيه عظمة السر وقداسته، ولأن هكذا سلَّم مخلصنا سر الشكر. والكنيسة الأرثوذكسية هكذا تسلمت واستعملت الخبز في هذا السر إلى الآن، على ما ورد في القانون (٤٤) لمجمع قرطجانة. ووجوب أن يكون الخبز مختمرًا لا فطيرًا خاليًا من الخمير، كما يستعمل اللاتين برشامهم في سر الشكر، للأسباب التالية:

١- إن ربنا تمم سر الشركة وسلمه بخبز مختمر لا بفطير؛ لأنه أسس هذا السر قبل عيد الفصح عند اليهود، بقول يوحنا الإنجيلي: "أَمَّا يَسُوعُ قَبْلَ عِيدِ الْفِصْحِ... فَحِينَ كَانَ الْعَشَاءُ" (يو١٣: ١و٢). كما لأن اليهود كانوا لا يزالوا يستعدون ليُعيدوا الفصح عندما حُكم على يسوع في غداة تأسيسه السر ولما دُفع إلى الموت، بقول يوحنا الإنجيلي أيضًا: "وَكَانَ اسْتِعْدَادُ الْفِصْحِ، وَنَحْوُ السَّاعَةِ السَّادِسَةِ فَقَالَ (بِيلاَطُس) لِلْيَهُودِ هُوَذَا مَلِكُكُمْ" (يو ١٩: ١٤)، وحتى إنزاله عن الصليب، بقول يوحنا الإنجيلي أيضًا: "إِذْ كَانَ اسْتِعْدَادٌ، فَلِكَيْ لاَ تَبْقَى الأَجْسَادُ عَلَى الصَّلِيبِ فِي السَّبْتِ، لأَنَّ يَوْمَ ذلِكَ السَّبْتِ كَانَ عَظِيمًا" (يو ١٩: ٣١).

فكان من ثَمَّ تأسيس سر الشكر في وقت كان اليهود في كل مكان يستعملون فيه خبزًا مُخمرًا لا فطيرًا، أي في مساء اليوم الثالث عشر من شهر أَبِيب (أبريل- نيسان)، وهذه الحقيقة تتضح من مراجعة الناموس والإنجيل. فالناموس الموسوي يأمر الاسرائليين أن يُعيدوا الفصح مساء اليوم الرابع عشر من شهر أَبِيب (أبريل- نيسان) وأن يبتدئوا من تلك العشية بأن يأكلوا فطيرًا، كما ذُكر في سفر الخروج: "وَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى وَهَارُونَ فِي أَرْضِ مِصْرَ قَائِلاً: هذَا الشَّهْرُ يَكُونُ لَكُمْ رَأْسَ الشُّهُورِ. هُوَ لَكُمْ أَوَّلُ شُهُورِ السَّنَةِ. كَلِّمَا كُلَّ جَمَاعَةِ إِسْرَائِيلَ

قَائِلَيْنِ: فِي الْعَاشِرِ مِنْ هذَا الشَّهْرِ يَأْخُذُونَ لَهُمْ كُلُّ وَاحِدٍ شَاةً بِحَسَبِ بُيُوتِ الآبَاءِ، شَاةً لِلْبَيْتِ... وَيَكُونُ عِنْدَكُمْ تَحْتَ الْحِفْظِ إِلَى الْيَوْمِ الرَّابِعَ عَشَرَ مِنْ هذَا الشَّهْرِ. ثُمَّ يَذْبَحُهُ كُلُّ جُمْهُورِ جَمَاعَةِ إِسْرَائِيلَ فِي الْعَشِيَّةِ... وَيَأْكُلُونَ اللَّحْمَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ مَشْوِيًّا بِالنَّارِ مَعَ فَطِيرٍ... هُوَ فِصْحٌ لِلرَّبِّ... وَيَكُونُ لَكُمْ هذَا الْيَوْمُ تَذْكَارًا فَتُعَيِّدُونَهُ عِيدًا لِلرَّبِّ. فِي أَجْيَالِكُمْ تُعَيِّدُونَهُ فَرِيضَةً أَبَدِيَّةً. سَبْعَةَ أَيَّامٍ تَأْكُلُونَ فَطِيرًا... الْيَوْمَ الأَوَّلَ تَعْزِلُونَ الْخَمِيرَ مِنْ بُيُوتِكُمْ... فِي الشَّهْرِ الأَوَّلِ، فِي الْيَوْمِ الرَّابِعَ عَشَرَ مِنَ الشَّهْرِ، مَسَاءً، تَأْكُلُونَ فَطِيرًا إِلَى الْيَوْمِ الْحَادِي وَالْعِشْرِينَ مِنَ الشَّهْرِ مَسَاءً. سَبْعَةَ أَيَّامٍ لاَ يُوجَدْ خَمِيرٌ فِي بُيُوتِكُمْ" (خر ١٢:١-١٩)، انتهى نص الناموس. فعلى ذلك يكون أول يوم من اسبوع الفطير، وهو أول يوم الفصح أيضًا الذي فيه كان اليهود مأمورين أن ينزعوا الخبز من بيوتهم وأن يأكلوا فطيرًا فقط، هو اليوم الخامس عشر من أَبِيب (أبريل- نيسان) الذي يبتدىء من عشية اليوم الرابع عشر على حساب الأيام عند اليهود، وهذا يؤيده شهادة الناموس نفسه حيث يقول: "فِي الشَّهْرِ الأَوَّلِ، فِي الْيَوْمِ الرَّابِعَ عَشَرَ مِنَ الشَّهْرِ، مَسَاءً، تَأْكُلُونَ فَطِيرًا إِلَى الْيَوْمِ الْحَادِي وَالْعِشْرِينَ مِنَ الشَّهْرِ مَسَاءً. سَبْعَةَ أَيَّامٍ لاَ يُوجَدْ خَمِيرٌ فِي بُيُوتِكُمْ" (خر ١٢:١٨و١٩)، "تَحْفَظُ عِيدَ الْفَطِيرِ. سَبْعَةَ أَيَّامٍ تَأْكُلُ فَطِيرًا كَمَا أَمَرْتُكَ فِي وَقْتِ شَهْرِ أَبِيبَ، لأَنَّكَ فِي شَهْرِ أَبِيبَ خَرَجْتَ مِنْ مِصْرَ" (خر ٣٤:١٨)، "فِي الشَّهْرِ الأَوَّلِ، فِي الرَّابِعَ عَشَرَ مِنَ الشَّهْرِ، بَيْنَ الْعِشَاءَيْنِ فِصْحٌ لِلرَّبِّ. وَفِي الْيَوْمِ الْخَامِسَ عَشَرَ مِنْ هذَا الشَّهْرِ عِيدُ الْفَطِيرِ لِلرَّبِّ. سَبْعَةَ أَيَّامٍ تَأْكُلُونَ فَطِيرًا. فِي الْيَوْمِ الأَوَّلِ يَكُونُ لَكُمْ مَحْفَلٌ مُقَدَّسٌ. عَمَلاً مَا مِنَ الشُّغْلِ لاَ تَعْمَلُوا" (لا ٢٣:٥-٧).

فإذ كان اليوم الخامس عشر من أَبِيب (أبريل- نيسان) هو أول يوم من الفطير، وإذ كان أيضًا أن يوم الجمعة الذي فيه صلب الرب كان يومًا استعداديًا للعيد، كما يقول يوحنا الإنجيلي: "وَكَانَ اسْتِعْدَادُ الْفِصْحِ، وَنَحْوُ السَّاعَةِ السَّادِسَةِ فَقَالَ (بِيلاَطُس) لِلْيَهُودِ هُوَذَا مَلِكُكُمْ" (يو ١٩:١٤)، ينتج أن يوم الجمعة كان واقعًا رابع عشر الشهر. وبما أن الرب أكل الفصح وسلَّم السر يوم الخميس مساءً والخميس كان ثالث عشر الشهر؛ ينتج أنه أكل الفصح مساءَ اليوم الثالث عشر من الشهر، أي قبل أن يأكل اليهود فصحهم بيوم كامل بليلة ونهار وأكثر من ذلك ببعض ساعات أيضًا. وهذا يوافق كل الموافقة ما جاء في الإنجيل المقدس، حيث يقول يوحنا الإنجيلي: "أَمَّا يَسُوعُ قَبْلَ عِيدِ الْفِصْحِ، وَهُوَ عَالِمٌ أَنَّ سَاعَتَهُ قَدْ جَاءَتْ لِيَنْتَقِلَ مِنْ هذَا الْعَالَمِ إِلَى الآبِ... قَامَ عَنِ الْعَشَاءِ، وَخَلَعَ ثِيَابَهُ، وَأَخَذَ مِنْشَفَةً وَاتَّزَرَ بِهَا، ثُمَّ صَبَّ مَاءً فِي مِغْسَلٍ، وَابْتَدَأَ يَغْسِلُ أَرْجُلَ التَّلاَمِيذِ

وَيَمْسَحُهَا بِالْمِنْشَفَةِ الَّتِي كَانَ مُتَّزِرًا بِهَا" (يو ١٣:١-٤). وهذا المعنى يتبيَّن من مقابلة كلام الإنجليين بعضهم من بعض:

فقد قال القديس متى الإنجيلي: "وَفِي أَوَّلِ أَيَّامِ الْفَطِيرِ ["τῶν ἀζύμων" (ton azimon)] تَقَدَّمَ التَّلاَمِيذُ إِلَى يَسُوعَ قَائِلِينَ لَهُ: أَيْنَ تُرِيدُ أَنْ نُعِدَّ لَكَ لِتَأْكُلَ الْفِصْحَ؟ فَقَالَ اذْهَبُوا إِلَى الْمَدِينَةِ، إِلَى فُلاَنٍ وَقُولُوا لَهُ: الْمُعَلِّمُ يَقُولُ إِنَّ وَقْتِي قَرِيبٌ. عِنْدَكَ أَصْنَعُ الْفِصْحَ مَعَ تَلاَمِيذِي. فَفَعَلَ التَّلاَمِيذُ كَمَا أَمَرَهُمْ يَسُوعُ وَأَعَدُّوا الْفِصْحَ" (مت ٢٦:١٧-١٩). وقال القديس مرقس الإنجيلي: "وَفِي الْيَوْمِ الأَوَّلِ مِنَ الْفَطِيرِ ["τῶν ἀζύμων" (ton azimon)]. حِينَ كَانُوا يَذْبَحُونَ الْفِصْحَ، قَالَ لَهُ تَلاَمِيذُهُ: أَيْنَ تُرِيدُ أَنْ نَمْضِيَ وَنُعِدَّ لِتَأْكُلَ الْفِصْحَ؟" (مر ١٤:١٢). كما قال القديس لوقا الإنجيلي: "وَجَاءَ يَوْمُ الْفَطِيرِ ["τῶν ἀζύμων" (ton azimon)] الَّذِي كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يُذْبَحَ فِيهِ الْفِصْحُ. فَأَرْسَلَ بُطْرُسَ وَيُوحَنَّا قَائِلاً اذْهَبَا وَأَعِدَّا لَنَا الْفِصْحَ لِنَأْكُلَ" (لو ٢٢:٧و٨).

هنا يظهر لبعضهم من قول متى ومرقس: "فِي الْيَوْمِ الأَوَّلِ مِنَ الْفَطِيرِ"، ومن قول لوقا: "وَجَاءَ يَوْمُ الْفَطِيرِ"، أن الرب سلَّم السر في العيد وتمم الفصح مع اليهود. لكن هذا الظن بعيد جدًّا عن الحقيقة، ذلك:

أولاً: لأن من قول القديس متى الإنجيلي نفسه يستفاد أن يسوع طلب أن يأكل الفصح قبل حلول وقته، إذ قال حالًا بعد ذلك: "إِنَّ وَقْتِي قَرِيبٌ. عِنْدَكَ أَصْنَعُ الْفِصْحَ" (مت ٢٦:١٨).

ثانيًا: لأن القديس متى الإنجيلي والقديس مرقس الإنجيلي يشهدان أن اليوم الذي كان يسوع معلقًا فيه على الصليب كان يوم التهيئة ولم يكن عيدًا، حيث قال متى: "وَفِي الْغَدِ الَّذِي بَعْدَ التَهْيِئَةِ" (مت ٢٧:٦٢). وكذلك مرقس قال: "وَلَمَّا كَانَ الْمَسَاءُ، إِذْ كَانَت التَهْيِئَةُ، أَيْ مَا قَبْلَ السَّبْتِ" (مر ١٥:٤٢). وشهادة يوحنا الإنجيلي الصريحة تبيِّن أن هذه التهيئة التي ذكرها الإنجيليان كانت تهيئة للعيد لا للسبت، حيث يقول: "فَلَمَّا سَمِعَ بِيلاَطُسُ هذَا الْقَوْلَ أَخْرَجَ يَسُوعَ، وَجَلَسَ عَلَى كُرْسِيِّ الْوِلاَيَةِ فِي مَوْضِعٍ يُقَالُ لَهُ لِيثُسْتْرُوتُنْ (بمعنى الْبَلاَطُ) وَبِالْعِبْرَانِيَّةِ جَبَّثَا. وَكَانَتْ تَهْيِئَةُ الْفِصْحِ، وَنَحْوُ السَّاعَةِ السَّادِسَةِ (من يوم الجمعة)" (يو ١٩:١٣و١٤)، وفي موضع آخر يقول: "ثُمَّ جَاءُوا بِيَسُوعَ مِنْ عِنْدِ قَيَافَا إِلَى دَارِ الْوِلاَيَةِ، وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ الْفَجْرِ. وَلَمْ يَدْخُلُوا هُمْ إِلَى دَارِ الْوِلاَيَةِ لِكَيْ لاَ يَتَنَجَّسُوا، فَيَأْكُلُونَ الْفِصْحَ" (يو ١٨:٢٨).

وقد سبق وذُكر أن أكل الفطير يبتدىء بعد أكل الفصح. فإذا كان يوم الجمعة يوم تهيئة الفصح ولم يكن اليهود بعد أكلوا الفصح، وأكل الفطير يبتدىء بعد أكل

الفصح، والسيد أكل الفصح ليلة الجمعة أي عشية الخميس؛ فبلا شك إن يسوع لم يأكل الفصح أو الفطير مع اليهود بل عيَّد قبلهم بأكثر من يوم كامل، كما سبق وذُكر.

ثالثًا: لأن القديس يوحنا الإنجيلي يقول بصريح العبارة: "أَمَّا يَسُوعُ قَبْلَ عِيدِ الْفِصْحِ، وَهُوَ عَالِمٌ أَنَّ سَاعَتَهُ قَدْ جَاءَتْ لِيَنْتَقِلَ مِنْ هذَا الْعَالَمِ إِلَى الآبِ، إِذْ كَانَ قَدْ أَحَبَّ خَاصَّتَهُ الَّذِينَ فِي الْعَالَمِ، أَحَبَّهُمْ إِلَى الْمُنْتَهَى. فَحِينَ كَانَ الْعَشَاءُ... قَامَ عَنِ الْعَشَاءِ، وَخَلَعَ ثِيَابَهُ، وَأَخَذَ مِنْشَفَةً وَاتَّزَرَ بِهَا، ثُمَّ صَبَّ مَاءً فِي مِغْسَل، وَابْتَدَأَ يَغْسِلُ أَرْجُلَ التَّلاَمِيذِ وَيَمْسَحُهَا بِالْمِنْشَفَةِ الَّتِي كَانَ مُتَّزِرًا بِهَا" (يو ١٣: ١-٥). فمن حيث العشاء المذكور هنا هو العشاء الأسراري، لأن الغسل كان حين هذا العشاء لا في غيره. ومن حيث أن هذا العشاء كان الفصح، فيسوع أكل الفصح قبل عيد الفصح اليهودي.

رابعًا: شرح يوحنا الذهبي الفم لقول متى الإنجيلي "وَفِي أَوَّلِ أَيَّامِ الْفَطِيرِ" يؤيد ما ذُكر، وذلك بقوله: «بلغ يوم الفطير الذي كان ينبغي فيه أن يُذبح الفصح، يعني أن اليوم كان قريبًا وعلى الأبواب لا أنه أتي. وبذلك يشير إلى تلك الليلة لأنهم كانوا يبتدئون من العشية».

أما السبب الذي حمل الإنجليين أن يُسموا يوم الخميس "أول أيام الفطير" فيُعرف من عوائد اليهود والتأمل في الحوادث. فمن المعلوم أن لليهود عادة أن يعتبروا مساء كل يوم بدءً لليوم الذي الذي يتبعه، فعشية الأربعاء مثلًا عندهم هي أول الخميس وعشية الخميس هي أول الجمعة وهلمَّ جرًّا. ومن حيث أن الخامس عشر من أَبِيب (أبريل- نيسان) وقع وقتئذٍ يوم السبت، الذي كان حسب شهادة الإنجيلي يوحنا "يَوْمَ ذلِكَ السَّبْتِ كَانَ عَظِيمًا" (يو ١٩: ٣١). وهذا اليوم أول يوم من الفطير وبدؤُه عشية الجمعة الذي فيه يؤكل الفصح حسب الناموس، فيوم الجمعة يُدعى عندهم يوم الفصح أو الفطير؛ لأن الفصح أُكل فيه. وبما أن هذا اليوم يبتدىء من مساء الخميس فبحسب تسمة الكل من الجزء قد سمى الإنجليون يوم الخميس أول الفطير؛ لأن غايتهم لم تكن أن يحددوا أوقاتًا مُدقَّقة بل أن يذكروا الحوادث، وهي أكل الفصح الناموسي وتسليم العشاء السري وأمر الغسل وخيانة يهوذا الإسخريوطي... الخ. ولا يُستبعد أنهم سموا ذلك اليوم "أول يوم من الفطير" إعتبارًا لسيدهم ومعلمهم يسوع المسيح لأنه أكل الفصح فيه فسموه باسم أول يوم من العيد غير ملتفتين إلى ظل الناموس الذي عبَّر بورود النعمة. وهكذا توافق القديس يوحنا الذهبي الفم في ما تقدم من تفسيره أن كلمة

"بلغ" بمعنى "قرب"، حيث يقول: «بلغ يوم الفطير... يعني أن اليوم كان قريبًا وعلى الأبواب لا أنه أتي».

ومن حيث أن يوحنا الإنجيلي يشهد صريحًا أن يسوع أجرى غسل أرجل تلاميذه قبل الفصح والغسل كان بعد العشاء (يو ١٣:١-٥) ويشهد أن اليهود لم يدخلوا دار الولاية لئلا يتنجسوا فيمتنعوا عن أكل الفصح (يو ١٨:٢٨) ويشهد كذلك أن يوم الجمعة كان استعدادًا وتهيئة للفصح (يو ١٩:١٣و١٤) ويشهد أيضًا أن يوم السبت كان يومًا عظيمًا أي يوم العيد، فكل مسيحي مؤمن بآيات الله مجبور أن يخضع لهذه الشهادات ويُسلِّم أن يسوع المسيح أكل الفصح قبل اليهود بأكثر من يوم، أي أنه أكله في عشية اليوم الثالث عشر من شهر أَبِيب (أبريل- نيسان) بالتمام، وهو وقت كان جميع اليهود في كل صُقعٍ يستعملون فيه خبزًا مختمرًا لا فطيرًا.

إن الإنجيل يذكر السبب الذي لأجله عيَّد الرب عيد الفصح قبل اليوم المعين حيث قال يوحنا: "أَمَّا يَسُوعُ قَبْلَ عِيدِ الْفِصْحِ، وَهُوَ عَالِمٌ أَنَّ سَاعَتَهُ قَدْ جَاءَتْ لِيَنْتَقِلَ مِنْ هذَا الْعَالَمِ إِلَى الآبِ" (يو ١٣:١)، وقال متى: "تَقَدَّمَ التَّلاَمِيذُ إِلَى يَسُوعَ قَائِلِينَ لَهُ: أَيْنَ تُرِيدُ أَنْ نُعِدَّ لَكَ لِتَأْكُلَ الْفِصْحَ؟ فَقَالَ: اذْهَبُوا إِلَى الْمَدِينَةِ، إِلَى فُلاَنٍ، وَقُولُوا لَهُ الْمُعَلِّمُ يَقُولُ إِنَّ وَقْتِي قَرِيبٌ، عِنْدَكَ أَصْنَعُ الْفِصْحَ مَعَ تَلاَمِيذِي. فَفَعَلَ التَّلاَمِيذُ كَمَا أَمَرَهُمْ يَسُوعُ وَأَعَدُّوا الْفِصْحَ" (مت ٢٦:١٧-١٩). فدنو الساعة وقرب الوقت هو السبب لذلك؛ لأن يسوع كان مزمعًا أن يموت على الصليب في اليوم التالي ولم يكن ممكنًا أن يعيِّد يوم موته عيد الفصح.

ولا ينتج من كون المسيح عيَّد الفصح قبل اليهود وأكله قبل آلامه أنه أكل فطيرًا معه:

أولاً: لأن اليهود كانوا حسب الناموس يأكلون الفصح أولاً ثم يبتدئون باستعمال الفطير الذي كان يدوم مدة سبعة أيام (خر ١٢:٨-١٦) (لا ٢٣:٥و٦). فكان أمرًا طبيعيًا أن يأكل المخلص مع تلاميذه الفصح اليهودي أو حَمَل الفصح الذي كان رسمًا للذبيحة الاستغفارية وبالتالي لسر الشكر الإلهي، وأن يأسس حالًا بعد ذلك السر المسيحي سر جسده ودمه المرموز عنه بالفصح.

ثانيًا: لأن المخلص الذي هو رب السبت، ورب أعياد العهد القديم جميعها، بما أنه عيَّد الفصح يومًا واحدًا قبل اليوم المعين من الناموس لأنْ يُعيِّد فيه اليهود، عيد الفصح ثم يبتدئوا بالفطير، كان يمكنه أيضًا أن يُعيِّد عيد الفصح بخبز مختمر لا بفطير؛ لأن الإنجليين جميعًا قد ذكروا بكل إيضاح، بقولهم: "وَفِيمَا هُمْ يَأْكُلُونَ أَخَذَ يَسُوعُ خُبْزًا ["ἄρτον" (arton)]، وَبَارَكَ وَكَسَّرَ وَأَعْطَى التَّلاَمِيذَ

وَقَالَ: خُذُوا كُلُوا. هذَا هُوَ جَسَدِي" (مت ٢٦:٢٦) (مر ١٤:٢٤) (لو ٢٢:١٩). وقد ذكر الإنجليون ما يرفع كل شبهة حيث قالوا: "وَفِيمَا هُمْ يَأْكُلُونَ أَخَذَ يَسُوعُ خُبْزًا (ἄρτον)". في هذا يقول يوحنا الذهبي الفم: «حتى إننا نرى أكثر الذين يدَّعون أن يسوع أكل فطيرًا مع حَمَل الفصح يضطرون أن يُسلموا أنه لم يسلِّم سر الشكر بالفطير أكله مع الحَمَل، بل بعد أن عيَّد بفطير الناموس فصح العهد القديم الذي أخذ وقتئذٍ نهايةً، سلَّم حالًا سر العهد الجديد بالخبز الجديد أي بخبزٍ مختمرٍ حقيقي كامل لا بفطير رمزي ناقص» (مقاله على متى الأصحاح ٢٦).

٢- إن الخبز الذي استعمله الرسل في سر الإفخارستيا كان خبزًا اعتياديًا لا فطيرًا؛ كما ذكر في سفر أعمال الرسل بالقول: "وَفِي أَوَّلِ الأُسْبُوعِ إِذْ كَانَ التَّلاَمِيذُ مُجْتَمِعِينَ لِيَكْسِرُوا خُبْزًا ["ἄρτος" (artos)]، خَاطَبَهُمْ بُولُسُ وَهُوَ مُزْمِعٌ أَنْ يَمْضِيَ فِي الْغَدِ" (أع ٢٠:٧). وكما يقول بولس الرسول: "كَأْسُ الْبَرَكَةِ الَّتِي نُبَارِكُهَا، أَلَيْسَتْ هِيَ شَرِكَةَ دَمِ الْمَسِيحِ؟ الْخُبْزُ ["τὸν ἄρτον" (ton arton)] الَّذِي نَكْسِرُهُ، أَلَيْسَ هُوَ شَرِكَةَ جَسَدِ الْمَسِيحِ؟ فَإِنَّنَا نَحْنُ الْكَثِيرِينَ خُبْزٌ ["ἄρτος" (artos)] وَاحِدٌ، جَسَدٌ وَاحِدٌ، لأَنَّنَا جَمِيعَنَا نَشْتَرِكُ فِي الْخُبْزِ ["ἄρτου" (artou)] الْوَاحِدِ" (١كو ١٠:١٦و١٧)، وكما يقول: "فَإِنَّكُمْ كُلَّمَا أَكَلْتُمْ هذَا الْخُبْزَ ["τὸν ἄρτον" (ton arton)] وَشَرِبْتُمْ هذِهِ الْكَأْسَ، تُخْبِرُونَ بِمَوْتِ الرَّبِّ إِلَى أَنْ يَجِيءَ. إِذًا أَيُّ مَنْ أَكَلَ هذَا الْخُبْزَ ["τὸν ἄρτον" (ton arton)]، أَوْ شَرِبَ كَأْسَ الرَّبِّ، بِدُونِ اسْتِحْقَاق، يَكُونُ مُجْرِمًا فِي جَسَدِ الرَّبِّ وَدَمِهِ. وَلكِنْ لِيَمْتَحِنِ الإِنْسَانُ نَفْسَهُ، وَهكَذَا يَأْكُلُ مِنَ الْخُبْزِ وَيَشْرَبُ مِنَ الْكَأْسِ" (١كو ١١:٢٦-٢٨). وقد ذُكر أيضًا في سفر أعمال الرسل أن الذين كانوا يؤمنون من اليهود كانوا يتناولون خبز الشكر، مثل سائر المؤمنين حديثًا، بالقول: " فَلَمَّا سَمِعُوا (اليهود) نُخِسُوا فِي قُلُوبِهِمْ، وَقَالُوا لِبُطْرُسَ وَلِسَائِرِ الرُّسُلِ: مَاذَا نَصْنَعُ أَيُّهَا الرِّجَالُ الإِخْوَةُ؟ فَقَالَ لَهُمْ بُطْرُسُ تُوبُوا وَلْيَعْتَمِدْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ عَلَى اسْمِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ لِغُفْرَانِ الْخَطَايَا، فَتَقْبَلُوا عَطِيَّةَ الرُّوحِ الْقُدُسِ... فَقَبِلُوا كَلاَمَهُ بِفَرَحٍ، وَاعْتَمَدُوا، وَانْضَمَّ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ نَحْوُ ثَلاَثَةِ آلاَفِ نَفْسٍ. وَكَانُوا يُواظِبُونَ عَلَى تَعْلِيمِ الرُّسُلِ، وَالشَّرِكَةِ، وَكَسْرِ الْخُبْزِ ["τοῦ ἄρτου" (artou tou)]، وَالصَّلَوَاتِ... وَكَانُوا كُلَّ يَوْمٍ يُواظِبُونَ فِي الْهَيْكَلِ بِنَفْسٍ وَاحِدَةٍ. وَإِذْ هُمْ يَكْسِرُونَ الْخُبْزَ ["ἄρτον" (arton)] فِي الْبُيُوتِ" (أع ٢:٣٧-٤٢و٤٦).

فالرب وكذلك الرسل أيضًا يذكرون خبزًا ولم يقل أحد منهم أنه أخذ فطيرًا؛ لأن "الفطير" له اسم خصوصي دائمًا يسمونه به وهو ["τῶν ἀζύμων"

(ton azimon)]، ولا يمكن أن تطلق عليه لفظة ["τὸν ἄρτον" (ton arton)] التي معناها "الخبز".

لكن من حيث أن الناموس الموسوي لا يأمر باستعمال الفطير أكثر من سبعة أيام في السنة، فمن المحال كان قبول المؤمنين من اليهود أن يأكلوا فطيرًا كل يوم، "وَكَانُوا كُلَّ يَوْمٍ يُواظِبُونَ فِي الْهَيْكَلِ بِنَفْسٍ وَاحِدَةٍ. وَإِذْ هُمْ يَكْسِرُونَ الْخُبْزَ (τοῦ ἄρτου) فِي الْبُيُوتِ، كَانُوا يَتَنَاوَلُونَ الطَّعَامَ بِابْتِهَاجٍ وَبَسَاطَةِ قَلْبٍ" (أع ٢:٤٦)، وكل أسبوع في يوم الرب بسر الشكر، "وَكَانُوا يُواظِبُونَ عَلَى تَعْلِيمِ الرُّسُلِ، وَالشَّرِكَةِ، وَكَسْرِ الْخُبْزِ (τοῦ ἄρτου)، وَالصَّلَوَاتِ" (أع ٢:٤٢). إذ لم يُحدد الرسل من ذلك الوقت كيفية يتطبيق المسيحيون طقوس شريعة موسى (أع ١٥)، لكن بمجمعهم في أورشليم لما حددوا أي قسم من ناموس موسى ينبغي أن يتركه المسيحيون وأي قسم أن يحفظوه لم يوصوا باستعمال الفطير ولا بكلمة واحدة، بقولهم: "أَنْ تَمْتَنِعُوا عَمَّا ذُبِحَ لِلأَصْنَامِ، وَعَنِ الدَّمِ، وَالْمَخْنُوقِ، وَالزِّنَا" (أع ١٥:٢٩). فضلًا عن ذلك إن استعمال الفطير كان مأمورًا به في الشريعة الموسوية بلا بد وأن الرسل لما حددوا بمجمعهم في أورشليم أي قسم من الناموس ينبغي أن يتركه المسيحيون وأيُّ قسم أن يحفظوه لم يوصوا باستعمال الفطير ولا بكلمة واحدة، "حِينَئِذٍ رَأَى الرُّسُلُ وَالْمَشَايِخُ مَعَ كُلِّ الْكَنِيسَةِ أَنْ يَخْتَارُوا رَجُلَيْنِ مِنْهُمْ، فَيُرْسِلُوهُمَا إِلَى أَنْطَاكِيَةَ مَعَ بُولُسَ وَبَرْنَابَا... وَكَتَبُوا بِأَيْدِيهِمْ هكَذَا، اَلرُّسُلُ وَالْمَشَايِخُ وَالإِخْوَةُ يُهْدُونَ سَلاَمًا إِلَى الإِخْوَةِ الَّذِينَ مِنَ الأُمَمِ فِي أَنْطَاكِيَةَ وَسُورِيَّةَ وَكِيلِيكِيَّةَ إِذْ قَدْ سَمِعْنَا أَنَّ أُنَاسًا خَارِجِينَ مِنْ عِنْدِنَا أَزْعَجُوكُمْ بِأَقْوَال، مُقَلِّبِينَ أَنْفُسَكُمْ، وَقَائِلِينَ أَنْ تَخْتَتِنُوا وَتَحْفَظُوا النَّامُوسَ، الَّذِينَ نَحْنُ لَمْ نَأْمُرْهُمْ... لأَنَّهُ قَدْ رَأَى الرُّوحُ الْقُدُسُ وَنَحْنُ، أَنْ لاَ نَضَعَ عَلَيْكُمْ ثِقْلاً أَكْثَرَ، غَيْرَ هذِهِ الأَشْيَاءِ الْوَاجِبَةِ، أَنْ تَمْتَنِعُوا عَمَّا ذُبِحَ لِلأَصْنَامِ، وَعَنِ الدَّمِ، وَالْمَخْنُوقِ، وَالزِّنَا، الَّتِي إِنْ حَفِظْتُمْ أَنْفُسَكُمْ مِنْهَا فَنِعِمَّا تَفْعَلُونَ. كُونُوا مُعَافَيْنَ" (أع ١٥:٢٢ و٢٩)، فبلا شك من حيث لم يُذكر قبول الفطير في الكنيسة قد عَبَرَ هو أيضًا مثل غيره من ظل الشريعة.

٣- إن سر الشكر يُتمم في كنيسة يسوع المسيح منذ الأزمنة الرسولية إلى الآن بخبز مختمر لا بفطير، وهذا حقيقي لا ريب فيه للأسباب الآتية:

أ- الخبز المستخدم لهذا السر، كما هو معلوم، كان يُجمع من تقدمات الشعب أي من بيوت المسيحيين، وكانوا يُقدمونه بكثرة إلى الهياكل خبزًا اعتياديًا مختمرًا ليصلح لموائد المحبة ولإعانة الفقراء أيضًا؛ كما يقول بولس الرسول: "فَحِينَ

تَجْتَمِعُونَ مَعًا لَيْسَ هُوَ لأَكْلِ عَشَاءِ الرَّبِّ. لأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ يَسْبِقُ فَيَأْخُذُ عَشَاءَ نَفْسِهِ فِي الأَكْلِ، فَالْوَاحِدُ يَجُوعُ وَالآخَرُ يَسْكَرُ. أَفَلَيْسَ لَكُمْ بُيُوتٌ لِتَأْكُلُوا فِيهَا وَتَشْرَبُوا؟ أَمْ تَسْتَهِينُونَ بِكَنِيسَةِ اللهِ وَتُخْجِلُونَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ؟ مَاذَا أَقُولُ لَكُمْ؟ أَأَمْدَحُكُمْ عَلَى هذَا؟ لَسْتُ أَمْدَحُكُمْ! لأَنَّنِي تَسَلَّمْتُ مِنَ الرَّبِّ مَا سَلَّمْتُكُمْ أَيْضًا: إِنَّ الرَّبَّ يَسُوعَ فِي اللَّيْلَةِ الَّتِي أُسْلِمَ فِيهَا، أَخَذَ خُبْزًا ["ἄρτον" (arton)] وَشَكَرَ فَكَسَّرَ، وَقَالَ: خُذُوا كُلُوا هذَا هُوَ جَسَدِي الَّذِي يُكْسَرُ لأَجْلِكُمْ. اصْنَعُوا هذَا لِتِذْكَارِي" (١كو ١١:٢٠-٢٣).

ب- ليس أحد من القدماء يُسمي خبز الإفخارستيا فطيرًا فجميع جميع الكُتَّاب يسمونه أحيانًا "خبزًا اعتياديًا"، كما يذكر كل من: يوستينوس وايريناوس وكيرلس الأورشليمي وأمبروسيوس الذي يقول (في كتابه في الأسرار ٤:٤): «وربما كنت تقول أنت أن خبزي هو خبز اعتيادي».

وأحيانًا يسمونه "خبزًا مختمرًا"، كما يقول البابا إينوشنسيوس (+ ٤١٧م): إن القسوس يأخذون خبزًا مختمرًا لكي لا يشهروا ذواتهم منفصلين عن ذاك الإله العلي... ».

جـ- لأن القديس أبيفانيوس في تكلمه عن الأبيونيين الهراطقة المتمسكين بالشريعة الموسوية الذين كانوا يقيمون سر الشكر الإلهي بفطير وماء فقط، قال عنهم: «يُتممون الأسرار... بالفطير والقسم الآخر من السر بالماء فقط» (هرطقة ١٦:٣٠)، موضحًا بذلك أن عادة الكنيسة ليست كذلك.

د- كثيرون من المؤلفين الغربيين من البروتستانت واللاتين يعترفون ويبرهنون أن الفطير لم يكن مستعملًا في الكنيسة إلى القرن العاشر حتى الحادي عشر أيضًا (أمثال سيرموند في مؤلفه "في الفطير"، وكوتيلاريوس في مؤلفه "في الكنيسة اليونانية"، وباكيوس في حواشيه على "تاريخ بارون"، وبنيكام في مؤلفه "في الكنيسة القديمة"، وكلاين في مؤلفه "تاريخ الكنيسة"). عكس غيرهم منهم الذين يقولون أن الفطير كان مستعملًا في الكنيسة وهؤلاء يقسمون إلى قسمين: القسم الأول، يقول إن الكنيسة الرومانية منذ الأزمنة الرسولية استعملت الفطير دائمًا، مثل كيامبيان ومابيلون. والقسم الثاني، يقول إن الكنيسة الرومانية منذ القديم استعملت بلا تمييز الفطير والخبز، مثل بونا وغيره. واللاتين في تعليم عقائدهم يعترفون الآن أن الخمير والفطير يصلحان بالسوية لتتميم سر الشكر الإلهي، مثل بيرون في مقدمة اللاهوت في شرح سر الشكر القسم ٢ الفصل ٣.

إن أكثر اللاهوتيين الأورثوذكسيين يبرهنون ببراهين قوية أن الفصح الذي أكله الرب لم يكن الفصح الناموسي بل فصح العهد الجديد. من تلك البراهين أن

اليهود اعتادوا بحسب الطقس الموسوي أن يأكلوا الفصح وهم واقفون (خر ١٢:١١)، إذ يذكرهم بالانطلاق السريع من العبودية التي عاشها آباؤهم في مصر. أمّا الرب فقدّم لنا الفصح الجديد، فقد أكل العشاء مع الرسل وهم متكئون وليس واقفون وعدم أكله إياه مشويًا، كما يتضح من قول متى الإنجيلي: "فَفَعَلَ التَّلاَمِيذُ كَمَا أَمَرَهُمْ يَسُوعُ وَأَعَدُّوا الْفِصْحَ. وَلَمَّا كَانَ الْمَسَاءُ اتَّكَأَ مَعَ الاثْنَيْ عَشَرَ. وَفِيمَا هُمْ يَأْكُلُونَ قَالَ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ إِنَّ وَاحِدًا مِنْكُمْ يُسَلِّمُنِي. فَحَزِنُوا جِدًّا، وَابْتَدَأَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَقُولُ لَهُ هَلْ أَنَا هُوَ يَا رَبُّ؟ فَأَجَابَ وَقَالَ الَّذِي يَغْمِسُ يَدَهُ مَعِي فِي الصَّحْفَةِ هُوَ يُسَلِّمُنِي" (مت ٢٦:١٩-٢٣).

كما كانت عادة اليهود في طقس الفصح أن تُستخدم ثلاث كؤوس، لذا يرى البعض أن الكأس الأولى التي أعطاها الرب للرسل ليقتسموها بينهم إنما هي أحد كؤوس الطقس اليهودي، أو العهد العتيق. أمّا الكأس الثانية التي أعطاها الرب للرسل فهي كأس العهد الجديد، التي جاءت ليس ككأس بركة عامة، وإنما تقدست لتصير دم السيد المسيح المبذول؛ كما ذكر لوقا الإنجيلي: "وَلَمَّا كَانَتِ السَّاعَةُ اتَّكَأَ وَالاثْنَا عَشَرَ رَسُولاً مَعَهُ، وَقَالَ لَهُمْ شَهْوَةً اشْتَهَيْتُ أَنْ آكُلَ هذَا الْفِصْحَ مَعَكُمْ قَبْلَ أَنْ أَتَأَلَّمَ... ثُمَّ تَنَاوَلَ كَأْسًا وَشَكَرَ وَقَالَ خُذُوا هذِهِ وَاقْتَسِمُوهَا بَيْنَكُمْ... وَكَذلِكَ الْكَأْسَ أَيْضًا بَعْدَ الْعَشَاءِ قَائِلاً هذِهِ الْكَأْسُ هِيَ الْعَهْدُ الْجَدِيدُ بِدَمِي الَّذِي يُسْفَكُ عَنْكُمْ" (لو ٢٢:١٤-٢٠). فالكأس الأولى تشير للعهد القديم، أما الكأس الثانية، بعد العشاء، فتقدم لنا سرّ العهد الجديد.

إن فصح العهد الجديد يُعلن انتقالنا إلى حالة "المجد" وانتهاء زمن الظلال والرموز، فصح عبور إلى الحياة السماوية، لكي نتكئ مع الرب في حضن أبيه وننعم بشركة أمجاده، كما يتضح من قول لوقا الإنجيلي عن يسوع: "وَلَمَّا كَانَتِ السَّاعَةُ اتَّكَأَ وَالاثْنَا عَشَرَ رَسُولاً مَعَهُ، وَقَالَ لَهُمْ شَهْوَةً اشْتَهَيْتُ أَنْ آكُلَ هذَا الْفِصْحَ مَعَكُمْ قَبْلَ أَنْ أَتَأَلَّمَ، لأَنِّي أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي لاَ آكُلُ مِنْهُ بَعْدُ حَتَّى يُكْمَلَ فِي مَلَكُوتِ اللهِ. ثُمَّ تَنَاوَلَ كَأْسًا وَشَكَرَ وَقَالَ خُذُوا هذِهِ وَاقْتَسِمُوهَا بَيْنَكُمْ، لأَنِّي أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي لاَ أَشْرَبُ مِنْ نِتَاجِ الْكَرْمَةِ حَتَّى يَأْتِيَ مَلَكُوتُ اللهِ. وَأَخَذَ خُبْزًا وَشَكَرَ وَكَسَّرَ وَأَعْطَاهُمْ قَائِلاً هذَا هُوَ جَسَدِي الَّذِي يُبْذَلُ عَنْكُمْ. اِصْنَعُوا هذَا لِتِذْكَارِي. وَكَذلِكَ الْكَأْسَ أَيْضًا بَعْدَ الْعَشَاءِ قَائِلاً هذِهِ الْكَأْسُ هِيَ الْعَهْدُ الْجَدِيدُ بِدَمِي الَّذِي يُسْفَكُ عَنْكُمْ" (لو ٢٢:١٤-٢٠). والكنيسة الأرثوذكسية تعطي وصية الرب يسوع المسيح تلاميذه في يوم الخميس العظيم بإتمام ما صنعه، التي ذُكرت في

إنجيل لوقا "اِصْنَعُوا هذَا لِتِذْكَارِي" (١٩:٢٢)، أهميتها بأنها وصية خلاصية بها وحدها يتجاسر خدام المذبح أن يقدسوا سر الشكر العظيم والمخوف.

ثانيًا: المادة الثانية المطلوبة للسر هي النبيذ الأحمر

إن مخلصنا نفسه تمم السر المقدس بخمر من عصير الكرمة، كما ذكر في إنجيل متى: "وَفِيمَا هُمْ يَأْكُلُونَ أَخَذَ يَسُوعُ الْخُبْزَ، وَبَارَكَ وَكَسَّرَ وَأَعْطَى التَّلاَمِيذَ وَقَالَ خُذُوا كُلُوا. هذَا هُوَ جَسَدِي. وَأَخَذَ الْكَأْسَ وَشَكَرَ وَأَعْطَاهُمْ قَائِلاً اشْرَبُوا مِنْهَا كُلُّكُمْ، لأَنَّ هذَا هُوَ دَمِي الَّذِي لِلْعَهْدِ الْجَدِيدِ الَّذِي يُسْفَكُ مِنْ أَجْلِ كَثِيرِينَ لِمَغْفِرَةِ الْخَطَايَا. وَأَقُولُ لَكُمْ: إِنِّي مِنَ الآنَ لاَ أَشْرَبُ مِنْ نِتَاجِ الْكَرْمَةِ هذَا إِلَى ذلِكَ الْيَوْمِ حِينَمَا أَشْرَبُهُ مَعَكُمْ جَدِيدًا فِي مَلَكُوتِ أَبِي" (مت ٢٦:٢٦-٢٩).

والكنيسة المقدسة تبعت هذه الأقوال الإلهية وهي لم تزل تتمم سر الإفخارستيا بخمر من عصير الكرمة، أي نبيذ، وليس كما يقول المعلمون الكذبة كالأبيونيين والانكراتيين الذين كانوا يستعملون ماء بدلًا من النبيذ. كما يتضح من شهادات الآباء:

كالقديس يوحنا الذهبي الفم الذي يقول: «ولماذا لم يشرب ماء بعد القيامة بل شرب خمرًا؟ لكي يستأصل هرطقة أخرى أيضًا من أصولها، لأنه إذ كان قوم يستعملون في الأسرار ماء لا خمرًا فقد أوضح إنه عندما سلم الأسرار سلمها بخمر وإنه عندما وضع مائدة بسيطة بعد القيامة من دون الأسرار استعمل الخمر أيضًا، وقد قال: "من عصير الكرمة" أما الكرمة فلا تعصر ماء بل خمرًا» (مقالة ٨٣ على متى).

ومن العادة الجارية منذ القديم في فلسطين بأنهم يستعملون نبيذًا أحمر؛ لأن النبيذ الأحمر هو أقرب صورة يمثَّل بها دم يسوع المسيح، كما ذُكر في سفر التكوين "رَابِطًا بِالْكَرْمَةِ جَحْشَهُ، وَبِالْجَفْنَةِ ابْنَ أَتَانِهِ، غَسَلَ بِالْخَمْرِ لِبَاسَهُ، وَبِدَمِ الْعِنَبِ ثَوْبَهُ" (تك ٤٩:١١).

والنبيذ يجب أن يكون غاية في الطهارة كما تقتضي عظمة السر وقداسته، وأن يكون ممزوجًا بماء؛ لأن الرب عندما سلم سر الشكر استعمل نبيذًا ممزوجًا بماء كما كان يشربها وقتئذٍ جميع اليهود، وهذه العادة أساسها أمثال سليمان الحكيم، بقول الحِكمة: "هَلُمُّوا كُلُوا مِنْ طَعَامِي، وَاشْرَبُوا مِنَ الْخَمْرِ الَّتِي مَزَجْتُهَا" (أم ٩:٥). والكنيسة المقدسة تستعمله منذ القديم على مثال الرب ولتذكار الدم والماء اللذين جريا من جنبه على الصليب، "لكِنَّ وَاحِدًا مِنَ الْعَسْكَرِ طَعَنَ جَنْبَهُ بِحَرْبَةٍ، وَلِلْوَقْتِ خَرَجَ دَمٌ وَمَاءٌ" (يو ١٩:٣٤).

وكما يُعلِّم التعليم الشريف في أوامر الرسل: «وقد أخذ الكأس ممزوجة من خمر وماء وقدسه وأعطاهم قائلًا: "اشربوا منه كلكم لأن هذا هو دمي الذي للعهد الجديد"» (٨:٢٢).

يؤكد هذا التعليم وصحته قول القديس إيريناوس: «عندما نتناول الكأس الممزوجة والخبز المتقدم كلام الله وتصير الإفخارستيا جسدًا» (ضد الهراطقة).

وكذلك قول القديس كبريانوس: «حالما تمتزج الخمر التي في الكأس بالماء حينئذٍ يتحد الشعب بالمسيح» (رسالة ٦٣).

وغيرهم أمثال غريغوريوس النسيسي وأمبروسيوس ومعلمين آخرين كثيرين قدماء في الكنيسة.

وأيضًا المجامع القديمة تُعلِّم هذا التعليم:

كمجمع قرطاجنة الذي يقول: «لا يُقدم في القدسات أكثر من جسد الرب ودمه كما سلم الرب نفسه أعني الخبز والخمر الممزوجة بالماء» (قانون ٤٤).

ومجمع ترولُس الذي يقول: «لأنه (أي يوحنا الذهبي الفم) قد سلم لكنيسته التي تسلم رئاستها السامية أن تمزج الخمر بالماء كما اقتضى أن تتمم الذبيحة غير الدموية، موضحًا بذلك مزج الدم بالماء اللذين جريا من جنب المسيح الإله المنقذ والمخلص لحياة العالم أجمع والخلاص من الخطايا، وجميع الكنائس التي أشرقت فيها الكواكب الروحية فيها هذا الترتيب المَسلَّم من الله؛ لأن يعقوب الذي كان بالجسد أخا المسيح إلهنا وأُتُمن أولاً على كرسي كنيسة أورشليم وباسيليوس اسقف قيصرية الذي مجده امتد إلى كل الدهور وقد سلما إلينا كتابةً خدمة الأسرار المقدسة، كتبا أن الكأس المقدسة هكذا تُكمَّل في الخدمة الإلهية أي من الماء والخمر» (قانون ٣٣).

وكذلك كما يجري في خدمات القداديس الإلهية.

القسم الثاني: خدمة السر الشريفة، أي القداس الإلهي

أقول: {{يُحتفل بسر الشكر في الكنيسة الأرثوذكسية بخدمة من الخدم الأربع التالية:

١- خدمة القداس الإلهي للقديس يوحنا الذهبي الفم (وهو القداس الذي يُستخدم أيام الآحاد وفي بحر الأسبوع طوال العام عدا الآحاد التي يُستخدم فيها قداس القديس باسيليوس الكبير).

٢- خدمة القداس الإلهي للقديس باسيليوس الكبير (وتُستخدم عشر مرات في السنة في آحاد الصوم الفصحي وعيد القديس، والصلوات التي يتلوها الكاهن فيه أكثر طولاً عن خدمة قداس الذهبي الفم).
٣- خدمة القداس الإلهي للقديس يعقوب أخي الرب (وتقام مرة في السنة، في عيد القديس يعقوب الواقع في ٢٣ أكتوبر- تشرين الأول).
٤- خدمة القداس الإلهي للقديس مرقس الرسول (وتقام مرة في السنة، في عيد القديس يعقوب الواقع في ٢٥ أبريل- نيسان)}}.

والقداس الإلهي بدونه لا يُتمم سر الشكر، وهو مؤلف من ثلاثة أقسام:
القسم الأول: "خدمة الذبيحة" أو "خدمة القربان" أو "التقدمة"، في هذا القسم تُهيأ المادة المطلوبة للسر. وقد سُميّ "تقدمة" من عادة المسيحيين القديمة جدًّا، بأن يحضروا من بيوتهم خبزًا ونبيذًا ويقدموهما إلى الهيكل لأجل سر الشكر.
القسم الثاني: قداس الموعظين. وفي هذا القسم يستعد المسيحيين للسر، ويُسمح للموعوظين أن يكونوا حاضرين عند تتميمه.
القسم الثالث: قداس المؤمنين. وفيه يُتمَّم السر ويُكمَّل، ولا يُسمح الحضور فيه إلا للمؤمنين فقط.

الجزء الأهم في القسم الثالث (قداس المؤمنين) من خدمة القداس الإلهي:
أولاً: الكلام الجوهري. كلام الرب، الذي به أعطى جسده ودمه لتلاميذه علنًا حين تأسيسه السر يوم الخميس العظيم في العشاء الأخير، "خُذُوا كُلُوا. هذَا هُوَ جَسَدِي... اشْرَبُوا مِنْهَا كُلُّكُمْ، لأَنَّ هذَا هُوَ دَمِي" (مت ٢٦:٢٦ و٢٨).
ثانيًا: إستدعاء الروح القدس. التضرع إلى الآب الإله العلي لكي يرسل روحه القدوس على القرابين المقدسة غير الدموية ويباركها ويقدسها، بقوله خادم السر: «ونسألك يا قدس القديسين أن يحل بمسرة صلاحك روحك القدوس».
إن أقوال المخلص التي يرددها خادم السر، "خُذُوا كُلُوا. هذَا هُوَ جَسَدِي... اشْرَبُوا مِنْهَا كُلُّكُمْ، لأَنَّ هذَا هُوَ دَمِي"، واستدعاءه الروح القدس، بقول خادم السر: «أيضًا نقدم لك هذه العبادة الناطقة غير الدموية ونطلب ونتضرع ونسأل فارسل روحك القدوس علينا وعلى هذه القرابين»، وتبريك وتقديس القرابين المقدسة غير الدموية، بقول خادم السر: «وأصنع أما هذا الخبز فجسد مسيحك المُكرم، وأما ما في هذه الكأس فدم مسيحك المُكرم، محولًا إياهما بروحك القدوس»؛ هي كلها عمل واحد متصل وغير منقسم. فخادم السر اعتمادًا على وصية الرب لتلاميذه: "إصْنَعُوا هذَا لِتِذْكَارِي"، يتجاسر أن يقدم للإله الآب من

قِبَل جميع المؤمنين صلاةً وتضرعًا لكي يرسل الروح القدس على القرابين المقدسة ويحولها إلى ذات جسد ودم مسيحه.

أقول: {{إن كلمات استدعاء الروح القدس تدل دلالة واضحة على أن الكنيسة الأرثوذكسية تؤمن بأن الخبز والخمر يستحيلان حقيقة بعد التقديس إلى جسد المسيح ودمه، وأنهما ليسا رمزين لهذا الجسد وهذا الدم بل هما الجسد والدم عينهما. ولكن مع تأكيدها على حقيقة الاستحالة، لم تحاول الأرثوذكسية قط تفسير الطريقة التي تجري بها. والعبارات المستخدمة للدلالة على هذا الأمر، بقول خادم السر: «محولاً (ناقلاً) إياهما»، لا تُعطي أي توضيح}}.

والكنيسة الأرثوذكسية تَعلم أيضًا أن استحالة الخبز والنبيذ جوهريًا في القداس الإلهي إلى جسد ودم المسيح هي نتيجة انحدار الروح القدس على القرابين المقدسة وفعله فيها؛ لأنه عندما أعطى المسيح الخبز كان مباركًا ومقدسًا، "وَفِيمَا هُمْ يَأْكُلُونَ أَخَذَ يَسُوعُ الْخُبْزَ، وَبَارَكَ وَكَسَّرَ" (مت ٢٦:٢٦). كما أن قول الرب: "خُذُوا كُلُوا هذَا هُوَ جَسَدِي. وَأَخَذَ الْكَأْسَ وَشَكَرَ وَأَعْطَاهُمْ قَائِلاً اشْرَبُوا مِنْهَا كُلُّكُمْ، لأَنَّ هذَا هُوَ دَمِي الَّذِي لِلْعَهْدِ الْجَدِيدِ الَّذِي يُسْفَكُ مِنْ أَجْلِ كَثِيرِينَ لِمَغْفِرَةِ الْخَطَايَا" (مت ٢٦:٢٦-٢٨)، إنما هو إيضاح لماهية ذاك الخبز والنبيذ للتلاميذ. هذا هو إيمان الكنيسة المسيحية منذ القديم حسب تسليم الرسل القديسين أنفسهم.

حقيقة إستحالة الخبز والنبيذ جوهريًا في القداس الإلهي، إلى جسد ["σῶμά" (soma)] ودم المسيح، نتيجة انحدار الروح القدس على القرابين المقدسة وفعله فيها، نتأكد منها:

أولاً: من خدمة القداسات الإلهي القديمة

خدمة قداس القديس يعقوب الرسول أخي الرب. وخدمة قداس القديس مرقس الرسول الإنجيلي الذي ورد فيه: «وكذلك بعد العشاء أخذ الكأس ومزج خمرًا وماءًا ورفع نظره إليك يا أباه، وإلهنا وإله الكل، وشكر وبارك وقدس وملأها بالروح القدس. أعطى تلاميذه الرسل القديسين المغبوطين قائلًا: "اشربوا منه كلكم"».

أقول: {{كما ورد أيضًا في خدمة قداس الإلهي للقديس مرقس الرسول: «إرسل روحك القدوس علينا وعلى هذا الخبز وعلى هذه الكأس لكي يُقدسها ويُكمِّلها لأنه إله كلي الاقتدار. واجعل أما هذا الخبز فجسد ربَّنا وإلهنا ومخلصنا

وملك الكل يسوع المسيح. وما في هذه الكأس فدم ربَّنا وإلهنا ومخلصنا وملك الكل يسوع المسيح الذي للعهد الجديد»}}.

وكذلك خدمة قداس الإلهي للقديس إكليمندس الروماني المذكور في كتاب الأوامر الرسولية من القرن الرابع الميلادي (كتاب ٨ فصل ١٢).

وأيضًا خدمة القديس باسيليوس الكبير وخدمة القديس يوحنا الذهبي الفم اللذان ورد فيهما: «ونسألك يا قدس القديسين أن يحل بمسرة صلاحك روحك القدوس، واصنع أما هذا الخبز فجسد مسيحك المكرَّم... وأما ما في هذه الكأس فدم مسيحك المكرَّم».

أقول: {{ورد في قداس القديس مرقس الإنجيلي: «إصفح عنا أيها الرب الإله الآب... ونطلب ونتضرع إليك... أن ترسل من أعاليك المقدسة... المعزي نفسه القدوس القوي معطي الحياة... ينبوع المواهب الإلهية، الواحد معك في الجوهر، المنبثق منك، الجالس على عرش ملكوتك معك ومع ابنك الوحيد ربَّنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح». وفي القداس الإلهي للقديس باسيليوس الكبير وللقديس يوحنا الذهبي الفم يضرع الأسقف، في صلاة التقدمة، إلى الآب كي يرسل الروح القدس على القرابين غير الدموية الموضوعة، الخبز والنبيذ، لتستحيل إلى جسد ودم المسيح الإلهيَيْن، بقوله «(أيها الآب) إذا وضعنا رسمي جسد ودم مسيحك المقدسين نطلب إليك ونسأل منك يا قدوس القديسين أن يحل بمسرة صلاحك روحك القدوس علينا، وعلى هذه القرابين الموضوعة ويباركها ويقدسها ويوضح أما هذا الخبز فجسد الرب وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح الكريم نفسه، وأما ما في هذه الكأس فدم ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح الكريم نفسه، الذي أُهْرِق من أجل حياة العالم». وعندئذ يصبح المسيح نفسه مقدِّمًا لله الآب وفي جسده البشر والطبيعة. في هذا التضرع يطلب الأسقف حلول الروح القدس ليس فقط على القرابين الموضوعة بل على المؤمنين أيضًا الذين سوف يتناولونها، بما فيهم الأسقف والقس، بقوله: «علينا وعلى هذه القرابين الموضوعة»، ذلك كي يكون إنسجام بين المؤمنين وبين القرابين، فتؤول هذه لخلاصهم لا لهلاكهم، لأن القرابين الإلهية، غير الدموية، لا يمكن أن تقدس الإنسان إن لم يكن منفتحًا لعملها فيه}}.

ثانيًا: من شهادات معلمي الكنيسة الشرقية والغربية الأقدمين:

القديس إيريوناوس (+ ٢٠٢م) يقول: «كما أن الخبز الأرضي ببركة الله يكف عن أن يكون خبزًا بسيطًا لكنه يصير إفخارستيا مؤلفة من خبزٍ أرضيٍ

وسماوي هكذا إجسادنا أيضًا بعد أن تشترك في الإفخارستيا الإلهية ليست بعدها فاسدة بل هي رجاء القيامة» (ضد الهرطقات ٤:٣٤). كما يقول: «الكأس الممزوج والخبز المصنوع يتقبلان كلمة الله، ويصيران إفخارستيًا جسد المسيح ودمه» (الرد على الهرطقة ١٧:٤:٥).

والمغبوط أوريجانس (+ ٢٥٤م) يقول: «إننا نصنع مرضاة مُبدىء الكل فنشكره على احساناته ونتضرع إليه ونأكل خبز التقدمة بعد أن يصير بالدعاء جسدًا مقدَّسًا ومقدِّس للذين يأكلونه بطوية (بنية) صالحة» (ضد كيلسُس كتاب ٨ ص٣٩٩).

والقدّيس أثناسيوس الكبير (+ ٣٧٣م) يقول: «سترى الكهنة يهيّئون خبزًا وخمرًا يضعونهما على المذبح. وما دامت الأدعية والصلوات لم تبدأ، يبقى الخبز مجرّد خبز والخمر مجرّد خمر. ولكن، عندما يتمّ رفع الأدعية والصلوات، آنذاك يتحوّل الخبز والخمر إلى جسد الربّ ودمه».

والقديس كيرلس الأورشليمي (+ ٣٨٦م) يقول: «لأنه كما أن خبز الشكر وخمره قبل استدعاء الثالوث المسجود له المقدس كانا خبزًا وخمرًا بسيطين وبعد الدعاء أما الخبز فيصير جسد المسيح وأما الخمر فدم المسيح» (في الأسرار ٢:٧). كما يقول: «لأنه كما أن خبز الشكر بعد استدعاء الروح القدس ليس خبزًا بسيطًا بل جسد المسيح هكذا الخمر... » (في الأسرار ٣:٣). ويقول أيضًا: «ثم إذا نقدس أنفسنا بهذه التسابيح الروحية نسأل الرب المحب البشر أن يرسل الروح القدس على القرابين الموضوعة لكي يصنع أما الخبز فجسد المسيح وأما الدم فدم المسيح، لأنه لا شك بأن كل ما يلمسه الروح القدس فقد تقدس واستحال» (في الأسرار ٥:٧).

والقديس باسيليوس الكبير (+ ٣٧٩م) يقول: «مَن مِن القديسين خلف لنا كلمات الدعاء في إيضاح خبز الشكر وكأس البركة بكتابة مكتوبة؟ لأننا لا نكتفي بما ذكره الرسول والإنجيلي لكنا نقول قبلها وبعدها أقوالًا أخرى وقد اتخذناها من التعليم غير المكتوب وهي ذات قوة عظيمة في السر» (في الروح القدس لأمنفيلوشيوس فصل ٢٧).

وأغسطينوس المغبوط (+ ٤٣٠م) يقول: «هذه التي نسميها جسد ودم المسيح هي جوهر مأخوذ من ثمار الأرض ولكنها إذا تقدست باستدعاء التقديس فهي تُناول لنا لخلاص نفوسنا ولتذكار ألام المخلص وموته الذي احتمله من أجلنا» (في الثالوث ٣:٤:١٠)، كما يقول: «إننا بأقوال الرسول هذه "فأطلب أول كل شيء، أن تقام طلبات وصلوات وابتهالات وتشكرات لأجل جميع الناس" (١تي

١٠:٤) نفهم ما تُعيده كل كنيسة، فالطلبات تقدمها في خدمة القداس قبل تقديس القرابين الموضوعة على المائدة المقدسة، وأما الابتهالات فبعد تبريكهم حينما يُفصَّل الخبز المقدس أجزاء ليُناول للمؤمنين» (رسالة ١٤٩ إلى باولينس ١٦:٢).

والقديس بروكلُس اسقف القسطنطينية (+ ٤٤٧م) يقول: «بعد صعود مخلصنا إلى السماء قبل أن يتفرق الرسل في كل المسكونة كانوا يثابرون معًا على الصلوات كل نهار وإذ وجدوا تقديس جسد السيد السري تعزية لهم كانوا يرتلونه بإسهابٍ كليٍ... فبصلوات كهذه كانوا ينتظرون حلول الروح القدس لكي بحضوره الإلهي يجعل ويوضح الخبز والخمر الممزوجة بالماء الموضوعين للتقديس جسد مخلصنا يسوع المسيح نفسه ودمه نفسه، هذا الأمر هو في وقتنا أيضًا وسيكون حتى انقضاء الدهور» (في تسليم الخدمة الإلهية).

والقديس يوحنا الدمشقي (+ ٧٥٠م) يقول: «وليس بمستبعد أن نقول هذا أيضًا وهو كما أن الخبز والخمر والماء تستحيل بمقتضى الطبيعة إلى جسد مَن يأكلها ويشربها بالأكل والشرب لا تصير جسدًا آخر غير جسده الأول، هكذا خبز التقدمة والخمر والماء تستحيل بحال يفوق الطبع إلى جسد يسوع المسيح ودمه بالدعاء وبحلول الروح القدس وليس اثنين بل هما واحد هو هو نفسه». كما يقول: «إن استدعاء الروح القدس يحقّق ما لا يمكن أن يقبله إلاَّ الإيمان وحده» (في الإيمان ١٣:٤).

هذا التعليم عينه نجده أيضًا في مؤلفات القديس غريغوريوس النسيسي ويرونيموس وأمبروسيوس وجميع آباء الشرق الأرثوذكسيين.

مما تقدم يتضح أن كنيسة روما قد أخطأت بحذفها تبريك القدسات من خدمة القداس الإلهي. لأن الغربيين، في عقائدهم، يحاولون الولوج إلى قلب المعجزة وتفسير ما تعنيه. أما الشرقيون فينظرون بأعين الإيمان ويرون لأوّل وهلة الجسد والدم، ولا شيء سوى ذلك.

الباب الرابع

الفصل الأول

طبيعة سر الإفخارستيا غير المنظورة

تؤمن الكنيسة الأرثوذكسية أنه في اللحظة التي فيها يُتمم خادم السر حسب وصية الرب سر الشكر ويستدعي الروح القدس على القرابين ويُباركها ويُقدسها، كما سبق وذُكر، يستحيل الخبز والنبيذ استحالة حقيقية بحلول الروح القدس إلى جسد المسيح ذاته ودم المسيح ذاته، حتى إن الخبز والنبيذ اللذان يُنظرا فيما بعد على المائدة المقدسة ليسا خبزًا ونبيذًا حقيقيين بل هما جسد الرب ذاته ودم الرب ذاته تحت شكل الخبز والنبيذ لا غير.

وقد قال في ذلك بطاركة الشرق الأرثوذكسيين: «نؤمن أن ربنا يسوع حاضر في هذه الخدمة السرية لا بشكل الرمز أو الإشارة أو الرسم أو الصورة ولا بفيضان نعمته، كما في سائر الأسرار، ولا بنفخة بسيطة، كما قال بعض الآباء القديسيين في المعمودية، ولا بأنه مستتر بدخول لاهوت الكلمة أقنوميًا في الخبز المُقدم في الإفخارستيا، كما يعتقد تلاميذ لوثر، بل هو حاضر حضورًا حقيقيًا فعليًا حتى أنه بعد البركة أما الخبز فيتغير ويستحيل جوهريًا إلى جسد الرب ذاته الذي ولد في بيت لحم اليهودية من مريم البتول واعتمد في الأردن وتألم وقُبر وقام وصعد إلى السماوات وجلس عن ميامن الإله الآب وهو مزمع أن يظهر ثانية يومًا ما على سحاب السماء. وأما النبيذ فيتغير ويستحيل إلى دم الرب ذاته الذي أُهرق على الصليب في حين آلامه الطاهرة من أجل خلاص العالم. وأيضًا نؤمن أن الخبز والنبيذ بعد التبريك ليسا خبزًا ونبيذًا، بل هما جسد الرب ذاته ودمه ذاته تحت شكل الخبز والنبيذ» (رسالة بطاركة الشرق بند ١٧). ففي هذه الأقوال تعترف الكنيسة الأرثوذكسية صريحًا بحضور يسوع المسيح الحقيقي في سر الإفخارستيا وبكيفية حضوره فيها.

إن حقيقة حضور الرب في سر الشكر قد أنكره بعض القدماء (أمثال الدوكيين والأنقياء والباوليكيون والبوجوميل) والمتأخرين (أمثال ويكلف وزوينكليس وكلوينس وتلاميذهم) ولا سيما البروتستانت غير اللوثاريين الذين ينكرون قطعيًا حضور يسوع المسيح في سر الشكر الإلهي، ويُعَلمون أن الخبز والخمر يلبثان بعد التبريك أيضًا خبزًا بسيطًا وخمرًا بسيطًا وليس شيئًا آخر

سوى إشارات وصور ورموز ورسوم لجسد ودم يسوع المسيح. ويزعمون أن المسيحي حينما يشترك بهذا الخبز والخمر فحينئذٍ فقط يتناول داخليًا وروحيًا بالإيمان جسد ودم يسوع المسيح بمثابة قوت روحي، كما يقول كالفن.

أما كيفية حضور الرب في السر، تغيُّر أو استحالة جوهر الخبز والخمر إلى جسد يسوع المسيح ذاته ودمه ذاته، هذا التعليم قد أنكره أتباع لوثر الذين يخالفون رأي سائر البروتستانت المذكور قبلًا، ويعتقدون بحقيقة بحضور يسوع المسيح في سر الشكر غير إنهم يزعمون أن حضوره إنما هو بواسطة دخوله في الخبز والخمر اللذين يلبثان غير متغيرين ولا مستحيلين وبواسطة اقتران جسده ودمه الحقيقيين مع هذين النوعين بحال غير منظورة، كما يقول أتباع لوثر: «إن جسد المسيح هو في الخبز مع الخبز تحت الخبز»، لا بتغير أو استحالة جوهر الخبز والنبيذ إلى جسد يسوع المسيح ذاته وإلى دم يسوع المسيح ذاته.

حضور يسوع المسيح حقيقة في سر الشكر

إن تعليم الكنيسة الأرثوذكسية في حضور يسوع المسيح، تغيُّر أو استحالة جوهر الخبز والنبيذ إلى جسد يسوع المسيح ذاته ودمه ذاته، حقيقة في سر الشكر الإلهي هو مؤسس على صخرة الكتاب المقدس والتقليد الشريف.

أولاً: من الكتاب المقدس

١- وعد الرب بالسر

إن الكتاب المقدس في الأقوال التي بها ورد وعد الرب بسر الشكر (يو ٦:٢٧-٦٨) يشهد لصحة اعتقاد الكنيسة الأرثوذكسية شهادة صريحة، ولا يُنكر البروتستانت تلك الأقوال. لكن الخلاف بين الكنيسة الأرثوذكسية والبروتستانت وأتباع لوثر هو أن الكنيسة تفسر كلام الرب تفسيرًا حرفيًا أما البروتستانت فيفسرونه تفسيرًا رمزيًا.

ويؤكد صحة تفسير الكنيسة الأرثوذكسية لكلام الرب تفسيرًا حرفيًا:

أولاً: أن اليهود أنفسهم الذين كان يخاطبهم المخلص فهموا أقواله فهمًا حرفيًا لا رمزيًا؛ لأنهم عندما سمعوا يسوع قائلاً: "أَنَا هُوَ الْخُبْزُ الْحَيُّ الَّذِي نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ. إِنْ أَكَلَ أَحَدٌ مِنْ هذَا الْخُبْزِ يَحْيَا إِلَى الأَبَدِ. وَالْخُبْزُ الَّذِي أَنَا أُعْطِي هُوَ جِسْمِي (ἡ σάρξ μού) الَّذِي أَبْذِلُهُ مِنْ أَجْلِ حَيَاةِ الْعَالَمِ" (يو ٦:٥١)، ابتدأوا يتخاصمون فيما بينهم لعدم إمكان هذا قائلين: كَيْفَ يَقْدِرُ هذَا أَنْ يُعْطِيَنَا جِسْمَهُ

(τὴν σάρκα αὐτοῦ) لِنَأْكُلَ؟" (يو ٦:٥٢). فلو لم يكن اليهود أخذوا كلمات الرب بالمعنى الحرفي، أي أنهم فهموها بمعنى جسمه نفسه، لما تخاصموا ولا تسائلوا.

ثانيًا: في الإنجيل المقدس أن الرب كلما كان يتكلم في أمر ويفهمه اليهود على غير المعنى المقصود كان هو يوضح لهم المعنى الحقيقي ويرفع عنهم الغموض، كما في قوله لنيقوديموس: "الْحَقَّ الْحَقَّ (Ἀμὴν ἀμὴν) أَقُولُ لَكَ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يُولَدُ مِنْ فَوْقُ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَرَى مَلَكُوتَ اللهِ. قَالَ لَهُ نِيقُودِيمُوسُ: كَيْفَ يُمْكِنُ الإِنْسَانَ أَنْ يُولَدَ وَهُوَ شَيْخٌ؟ أَلَعَلَّهُ يَقْدِرُ أَنْ يَدْخُلَ بَطْنَ أُمِّهِ ثَانِيَةً وَيُولَدَ؟ أَجَابَ يَسُوعُ: الْحَقَّ الْحَقَّ (Ἀμὴν ἀμὴν) أَقُولُ لَكَ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يُولَدُ مِنَ الْمَاءِ وَالرُّوحِ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَدْخُلَ مَلَكُوتَ اللهِ" (يو ٣:٣-٥)، وفي لقائه مع السامرية (يو ٤:٢٠-٢٣)، وكذلك في مباحثته مع الفريسيين عندما سألوه: "أَيْنَ هُوَ أَبُوكَ؟" (يو ٨:١٩-٤٠).

فلو لم يكن اليهود بفهمهم كلماته فهمًا حرفيًا عن جسمه الحقيقي، فيما ذُكر في أولاً، لكان الرب أوضح ذلك لهم وبيَّن أنه يتكلم رمزيًا لا حرفيًا. لكنه عمل العكس، فقد أخذ يتبع كلامه السابق بالمعنى نفسه وبعبارات أكثر قوة وإيضاحًا، قائلًا لهم: "الْحَقَّ الْحَقَّ (Ἀμὴν ἀμὴν) أَقُولُ لَكُمْ، إِنْ لَمْ تَأْكُلُوا جِسْمَ (τὴν σάρκα) ابْنِ الإِنْسَانِ وَتَشْرَبُوا دَمَهُ، فَلَيْسَ لَكُمْ حَيَاةٌ فِيكُمْ. مَنْ يَأْكُلُ جِسْمِي وَيَشْرَبُ دَمِي (τὴν σάρκα καὶ πίνων μου) فَلَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ، وَأَنَا أُقِيمُهُ فِي الْيَوْمِ الأَخِيرِ، لأَنَّ جِسْمِي (σάρξ μου) مَأْكَلٌ حَقِيقِيٌّ ["ἀληθής" (alithis)] وَدَمِي مَشْرَبٌ حَقِيقِيٌّ (ἀληθής)" (يو ٦:٥٣-٥٥). هنا يجب الملاحظة على الخصوص:

١- أن الرب ابتدأ في جوابه بالعبارة "الْحَقَّ الْحَقَّ" ["Ἀμὴν ἀμὴν" (Amin amin)]، التي كان معتادًا أن يستعملها كلما كان يقصد أن يبيّن ويؤيد تأكيد حقيقة أقواله بزيادة إيضاح، كقوله لليهود: "أَبُوكُمْ إِبْرَاهِيمُ تَهَلَّلَ بِأَنْ يَرَى يَوْمِي فَرَأَى وَفَرِحَ. فَقَالَ لَهُ الْيَهُودُ: لَيْسَ لَكَ خَمْسُونَ سَنَةً بَعْدُ، أَفَرَأَيْتَ إِبْرَاهِيمَ؟ قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ الْحَقَّ الْحَقَّ (Ἀμὴν ἀμὴν) أَقُولُ لَكُمْ: قَبْلَ أَنْ يَكُونَ إِبْرَاهِيمُ أَنَا كَائِنٌ" (يو ٨:٥٦-٥٨).

٢- إنه يفرض شركة جسده ودمه على البشر بوصية وضعية ضرورية واجبة الامتثال لابد منها للحصول على الحياة الأبدية، بقوله: "إِنْ لَمْ تَأْكُلُوا جِسْمَ ابْنِ الإِنْسَانِ وَتَشْرَبُوا دَمَهُ، فَلَيْسَ لَكُمْ حَيَاةٌ فِيكُمْ. مَنْ يَأْكُلُ جِسْمِي وَيَشْرَبُ دَمِي فَلَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ، وَأَنَا أُقِيمُهُ فِي الْيَوْمِ الأَخِيرِ، لأَنَّ جِسْمِي مَأْكَلٌ حَقِيقِيٌّ (ἀληθής)

وَدَمِي مَشْرَبٌ حَقِيقِيٌّ (ἀληθής)" (يو ٦:٥٣-٥٥). ولأن هذه الوصية هي ذات أهمية عظيمة جدًا كان من الواجب أن تُذكر بعبارة بسيطة ومفهومة عند جميع الناس، وعبارة كهذه لا تكون رمزية بل حرفية.

٣- الكلمة اليونانية "ἀληθής" (alithis) التي بمعنى "حَقِيقِي"، معناها الحرفي هو "بالفعل" و"بالحقيقة" و"حقيقةً"، في قول المخلص: "لأَنَّ جِسْمِي مَأْكَلٌ حَقِيقِيٌّ (ἀληθής) وَدَمِي مَشْرَبٌ حَقِيقِيٌّ (ἀληθής)"، هي صفة تؤكد أن الجسد والدم هما مأكل ومشرب حقيقيان. وتشهد من جهة بأن موضوع التأكيد، أي جِسْمَهُ، هو كما هو غير قابل التغيير إلى معنى آخر غير معنى الجسم. ومن جهة أخرى تشهد بأن اليهود مع كونهم انذهلوا من وعد الرب بأن يعطيهم جِسْمَهُ مأكلًا وكانوا سريعي الميل إلى تحويل معنى الجسم إلى معنى موضوع آخر، مع ذلك لم يميلوا عن فهم حقيقة معنى أقواله في جسمه بل صدقوا أنه كان يعدهم حقيقة بأكل جسمه وشرب دمه.

ثالثًا: هذا المعنى الحرفي نفسه فهمه الرسل القديسون أيضًا إذ كانوا وقتئذٍ بين اليهود، لذا فقد ضاق فكرهم عن أن يسع إمكان أكلهم جسم معلمهم وشربهم دمه "فَقَالَ كَثِيرُونَ مِنْ تَلاَمِيذِهِ، إِذْ سَمِعُوا إِنَّ هذَا الْكَلاَمَ صَعْبٌ مَنْ يَقْدِرُ أَنْ يَسْمَعَهُ؟" (يو ٦:١٦). لكن المخلص أخذ حينئذٍ يقنعهم في إمكان هذه الشركة العجيبة، شركة جسمه ودمه، مؤيدًا كلامه لهم بآيات أخرى عجيبة جدًّا وهي صعوده العتيد إلى السماء الذي كان يستشهد به لسامعيه في أوقات نادرة، بمعنى كلما كانت الحال تقتضي أن يأتي ببراهين أكثر قوة على قدرته الإلهية وسمو تعليمه وحقيقة إنذاراته، كما يذكر يوحنا الإنجيلي بقوله: "فَعَلِمَ يَسُوعُ فِي نَفْسِهِ أَنَّ تَلاَمِيذَهُ يَتَذَمَّرُونَ عَلَى هذَا، فَقَالَ لَهُمْ: أَهذَا يُعْثِرُكُمْ؟ فَكَيْفَ إِنْ رَأَيْتُمُ ابْنَ الإِنْسَانِ صَاعِدًا إِلَى حَيْثُ كَانَ أَوَّلاً" (يو ٦:٦٢ و٦٣). وكذلك قوله لنثنائيل: "الْحَقَّ الْحَقَّ (Ἀμὴν ἀμὴν) أَقُولُ لَكُمْ مِنَ الآنَ تَرَوْنَ السَّمَاءَ مَفْتُوحَةً، وَمَلاَئِكَةَ اللهِ يَصْعَدُونَ وَيَنْزِلُونَ عَلَى ابْنِ الإِنْسَانِ" (يو ١:٥١) وقوله لقيافا رئيس الكهنة: "وَأَيْضًا أَقُولُ لَكُمْ مِنَ الآنَ تُبْصِرُونَ ابْنَ الإِنْسَانِ جَالِسًا عَنْ يَمِينِ الْقُوَّةِ، وَآتِيًا عَلَى سَحَابِ السَّمَاءِ" (مت ٢٦:٦٤).

رابعًا: إن جميع معلمي الكنيسة الأقدمين، مثل إكليموندس الاسكندري وترتليانوس وكبريانوس وأوسابيوس القيصري وغريغوريوس النسيسي وباسيليوس الكبير ويوحنا الذهبي الفم وأوغسطينوس ويوحنا الدمشقي وآخرين، قد فهموا أقوال يسوع المسيح التي فيها وعد بسر الشكر فهمًا حرفيًا. وكذلك

المجامع المسكونية أيضًا فسرت أقواله بهذا المعنى نفسه، كالمجمع المسكوني الثاني الذي التأم في القسطنطينية والمجمع الثالث المنعقد في أفسس.

خامسًا: إن عبارة "أكل اللحم"، في الكتاب المقدس إذا وردت بمعناها الرمزي تدل دائمًا كلما وردت على عمل شر عظيم للقريب والإساءة إليه بقساوة؛ وبالخصوص تدل على المذمة والنميمة والوشاية بحق القريب، كما ذُكر في سفر المزامير، بالقول: "عِنْدَ مَا اقْتَرَبَ إِلَيَّ الأَشْرَارُ لِيَأْكُلُوا لَحْمِي [" τὰς σάρκας μου" (tas sarkas mou)]، مُضَايِقِيَّ وَأَعْدَائِي عَثَرُوا وَسَقَطُوا" (مز ٢٧:٢)، وفي سفر أيوب، بالقول: "لِمَاذَا تُطَارِدُونَنِي كَمَا اللهُ، وَلاَ تَشْبَعُونَ مِنْ لَحْمِي ["σαρκῶν μου" (sarkon mou)]؟" (أيو ١٩:٢٢)، وكذلك في رسالة بولس الرسول لأهل غلاطية، بالقول: "فَإِذَا كُنْتُمْ تَنْهَشُونَ وَتَأْكُلُونَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، فَانْظُرُوا لِئَلاَّ تُفْنُوا بَعْضُكُمْ بَعْضًا" (غل ٥:١٥). ولا تدل في الكتاب المقدس على غير هذا المعنى مطلقًا، فإن أراد أحد أن يفسر أقوال المخلص التي وعد فيها بسر الشكر (الإفخارستيا) بمعنى رمزي يسقط ضرورة في ضلال عظيم إذ يضطر وفقًا للكتاب المقدس أن يفسر ويقول أن معنى قول يسوع لليهود: "إِنْ لَمْ تَأْكُلُوا جِسْمَ ["τὴν σάρκα" (tin sarka)] ابْنِ الإِنْسَانِ وَتَشْرَبُوا دَمَهُ، فَلَيْسَ لَكُمْ حَيَاةٌ فِيكُمْ" (يو ٦:٥٣)، هو "إن لم تسيئوا إلى ابن الإنسان بقساوة وإن لم تذموه وتتطاولوا عليه فليست لكم حياة فيكم"، وكذلك قوله لهم: "مَنْ يَأْكُلُ جِسْمِي ["μου τὴν σάρκα" (mou tin sarka)] وَيَشْرَبُ دَمِي فَلَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ" (يو ٦:٥٤)، هو "أن مَن يصنع بي أعظم الشرور له حياة أبدية". فليس هناك مَن يتجاسر أن يبدي أفكار كهذا مضادًا كل المضادة للكتاب المقدس وحقائق الإيمان المسيحي.

أقول: {{سبق وذَكرتُ أن الكلمة اليونانية "σάρξ" تعني: "لحم" (للتوضيح، بالإنجليزية Flesh وليس Meat)، و"جسم" و"جسد طبيعي" و"طبيعة بشرية"}}.

سادسًا: البراهين السابقة نفسها في هذا الموضوع تدحض رأي البروتستانت، لأنهم يفسرون "أكل الجسد" بمعنى الاتحاد والاشتراك الروحاني مع المسيح بالإيمان؛ وهذا التفسير يشير إلى أن الذين يتحدون روحيًا مع المسيح بالإيمان ليست لهم حياة فيهم. ولكن هذا المعنى مع كونه يُعبر عن حقيقةٍ لا يمكن أن يُستنتج من كلام الرب عن جسمه؛ لأن الرب كان يخاطب وقتئذٍ سامعيه من اليهود ويعدهم بطعام جديد لم يذقوه قط إلى ذلك الوقت، وقد وعدهم أن يعطيهم

إياه في المستقبل قائلًا: "الْخُبْزُ الَّذِي أَنَا أُعْطِي هُوَ جِسْمِي (ἡ σάρξ μού) الَّذِي أَبْذِلُهُ مِنْ أَجْلِ حَيَاةِ الْعَالَمِ" (يو ٦:٥١).

فلو كان كلامه يشير إلى الإيمان به لا إلى جسمه لوجب التصديق أن جميع سامعيه كانوا غير مؤمنين به وأن المسيح لم يكن أعطى الإيمان به، لكن كان بين سامعيه وقتئذٍ مؤمنون به غير تلاميذه ومشتركون معه بالإيمان. ونعمة الإيمان به كانت قد مُنحت ولا محل للوعد بها للمستقبل، "مِنْ هذَا الْوَقْتِ رَجَعَ كَثِيرُونَ مِنْ تَلاَمِيذِهِ إِلَى الْوَرَاءِ، وَلَمْ يَعُودُوا يَمْشُونَ مَعَهُ. فَقَالَ يَسُوعُ لِلاثْنَيْ عَشَرَ: أَلَعَلَّكُمْ أَنْتُمْ أَيْضًا تُرِيدُونَ أَنْ تَمْضُوا؟ فَأَجَابَهُ سِمْعَانُ بُطْرُسُ يَا رَبُّ، إِلَى مَنْ نَذْهَبُ؟ كَلاَمُ الْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ عِنْدَكَ، وَنَحْنُ قَدْ آمَنَّا وَعَرَفْنَا أَنَّكَ أَنْتَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ الْحَيِّ" (يو ٦:٦١-٦٩). فتفسير البروتستانت إذًا هو ضد الصواب؛ لأن كلام المخلص لا يشير إلى الإيمان به، بل إلى جسمه ودمه.

٢- تسليم الرب السر

يشهد الإنجليون متى ومرقس ولوقا في تسليم الرب سر الإفخارستيا (الشكر) الإلهي أنه في العشاء الأخير وفيما التلاميذ يأكلون "أَخَذَ يَسُوعُ الْخُبْزَ، وَبَارَكَ وَكَسَّرَ وَأَعْطَى التَّلاَمِيذَ وَقَالَ خُذُوا كُلُوا. هذَا هُوَ جَسَدِي ["τὸ σῶμά μου" (to soma mou)]" (مت ٢٦:٢٦) و(مر ١٤:٢٢) و(لو ٢٣:١٩). ومعنى هذه الأقوال الإلهية واضح لا شك فيه وهو أن الرب أعطى للمؤمنين جسده بذاته ودمه بذاته تحت شكل خبز الشكر الإلهي والنبيذ، ولا سبيل لأحد أن يفسر هذه الأقوال على غير معناها هذا الحرفي؛ لأن كل الاعتبارات تقنع بأن تُتخذ وتُفهم على هذا المعنى نفسه فهمًا حرفيًا:

الإعتبار الأول: التقدير والاحترام الواجب للمخلص. لأنه إن قُبل قول أتباع كلوينوس أن الرب بقوله لتلاميذه: "هذَا هُوَ جَسَدِي... هذَا هُوَ دَمِي" (مت ٢٦:٢٦-٢٨)، عنى عن إشارة أو رسم جسده وعن إشارة دمه. أفلا يُقبل أيضًا أن الرب بعدم تدقيقه في عبارته خدع (معاذ الله) تلاميذه وبهم خدع الكنيسة كلها التي فسرت منذ البدء هذه القوال، كما سيُذكر فيما بعد، بمعناها الحرفي المستقيم، واعتبرت دائمًا سر الشكر الإلهي جسد مخلصنا الحقيقي ولم تعتبره قط في كل مدة وجودها إشارات أو رسومًا أو رموزًا لجسده ودمه؟

الإعتبار الثاني: الظروف. إن الظروف التي فيها نطق المخلص بتلك الأقوال: "هذَا هُوَ جَسَدِي... هذَا هُوَ دَمِي" (مت ٢٦:٢٦-٢٨) تقنع في حقيقة ما يقوله. فإن الرب نطق بها لتلاميذه الذين انتخبهم لذاته واستحقوا أن يسمعوا من فمه

الإلهي تأكيده بأنهم أحبائه، بقوله لهم: "أَنْتُمْ أَحِبَّائِي إِنْ فَعَلْتُمْ مَا أُوصِيكُمْ بِهِ. لاَ أَعُودُ أُسَمِّيكُمْ عَبِيدًا، لأَنَّ الْعَبْدَ لاَ يَعْلَمُ مَا يَعْمَلُ سَيِّدُهُ، لكِنِّي قَدْ سَمَّيْتُكُمْ أَحِبَّاءَ لأَنِّي أَعْلَمْتُكُمْ بِكُلِّ مَا سَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي" (يو ١٥:١٤ و١٥). وقد نطق بها في برهة لم يكن يتكلم مع تلاميذه بأمثال بل ظاهرًا وعلنًا، حسب شهادتهم: "هُوَذَا الآنَ تَتَكَلَّمُ عَلاَنِيَةً وَلَسْتَ تَقُولُ مَثَلاً وَاحِدًا" (يو ١٦:٢٩)، بل نطق بها في ساعاته الأخيرة التي كانت ساعات آلام وموت، وفي البرهة الأخيرة التي يتلوها الموت لا مكان للرمز والإشارة.

الإعتبار الثالث: أهمية سر الشكر. إن الرب عندما رتب هذا السر جعله أعظم أسرار العهد الجديد وأمرنا أن نتممه مدى الدهر، عندما: "أَخَذَ خُبْزًا وَشَكَرَ وَكَسَّرَ وَأَعْطَاهُمْ قَائِلاً: هذَا هُوَ جَسَدِي الَّذِي يُبْذَلُ عَنْكُمْ. اِصْنَعُوا هذَا لِتِذْكَارِي. وَكَذلِكَ الْكَأْسَ أَيْضًا بَعْدَ الْعَشَاءِ قَائِلاً: هذِهِ الْكَأْسُ هِيَ الْعَهْدُ الْجَدِيدُ بِدَمِي الَّذِي يُسْفَكُ عَنْكُمْ" (لو ٢٢:١٩ و٢٠). فأهمية السر الكلي الضرورة للخلاص وصفة ذلك العهد الجديد وتلك الوصية تقتضي أن تكون العبارات التي استعملها المخلص في ترتيبه سر الشكر الإلهي معينة وواضحة كل الوضوح ولا يبقى سبيل لدخول أقل ريب أو ضلال في موضوع مهم كهذا.

الإعتبار الرابع: مقابلة كلمات المخلص بأقوال موسى. بمقابلة كلمات المخلص هذه بأقوال موسى التي قالها حينما وضع العهد القديم يتحقق ما تقدم عرضه. فإن المخلص لما رتب هذا السر العظيم مؤكدًا به العهد الجديد الذي بين الله وبين إسرائيل النعمة قال: "هذِهِ الْكَأْسُ هِيَ الْعَهْدُ الْجَدِيدُ بِدَمِي" (لو ٢٢:٢٠). وهكذا صنع موسى أيضًا لما أكد أن العهد القديم الذي الله وإسرائيل القديم، فإنه أخذ من الدم (أي دم حَمَل الفصح) ونضح به جميع الشعب وقال: "هذَا هُوَ دَمُ الْعَهْدِ الَّذِي أَوْصَاكُمُ اللهُ بِهِ" (عب ٩:٢٠)، "وَأَخَذَ مُوسَى الدَّمَ وَرَشَّ عَلَى الشَّعْبِ وَقَالَ: هُوَذَا دَمُ الْعَهْدِ الَّذِي قَطَعَهُ الرَّبُّ مَعَكُمْ عَلَى جَمِيعِ هذِهِ الأَقْوَالِ" (خر ٢٤:٨). لكن كما أن موسى نضح (رش) وقتئذٍ فعلًا لا رمزًا دم العجل الحقيقي، الذي كان يصَّور الدم الاستغفاري الجاري من جنب يسوع حَمَل الله الذي ذبح على مذبح الصليب عن خطايا العالم، هكذا يسوع المسيح قدَّم لتلاميذه في كأس العهد الجديد دمه الحقيقي لا رمزًا ولا إشارة.

أقول: {{إن جسد الرب يسوع المسيح الذي أعطاه لتلاميذه ليأكلوا ليس هو لاهوتًا مجردًا، ولا هو طعامًا خياليًا أو غير هيولي، ولا هو طعامًا أرضيًا؛ لأن يسوع لم يقل لتلاميذه: "خذوا كلوا هذا هو الاهوت"، وكذلك لم يقل لهم: "خذوا

كلوا هذا هو الخبز غير الهيولي (أي غير المادي)"، وأيضًا لم يقل لهم: "خذوا كلوا هذا الخبز الأرضي"، بل قال لهم: "خُذُوا كُلُوا. هذَا هُوَ جَسَدِي (τὸ σῶμά μου)" (مت ٢٦:٢٦). فالذي أعطاه الرب يسوع لتلاميذه ليأكلوا هو جسده الحقيقي المُؤَلَّه والمُمَجَد تحت شكل الخبز. وكذلك الذي أعطاه لهم ليشربوا هو دمه الحقيقي المُؤَلَّه والمُمَجَد، تحت شكل النبيذ (عصير الكرمة)، بقوله لهم: "اشْرَبُوا مِنْهَا كُلُّكُمْ، لأَنَّ هذَا هُوَ دَمِي". وقد أدرك تلاميذه أن ما أعطاه لهم يسوع المسيح هو جسده الحي المُتَأَلِّه الذي رأوه بعين الإيمان، والذي ما كان لليهود أن يفهموا ما يتكلم عنه الرب يسوع إن قيل لهم. فكما أن الذين عايشوا يسوع المسيح، الإله المتجسد، رؤوا ولمسوا جسده الذي كان يبدوا جسم إنساني مجرد، لكنهم لم يروا ولم يلمسوا لاهوته المتحد بناسوته، إلا أن المؤمنين به كانوا يرون بعين الإيمان ابن الله متجليًا في هذا الجسد، كما في قول سمعان بطرس عنه وعن التلاميذ الاثني عشر ليسوع، عندما رجع عنه كثيرون من تلاميذه: "وَنَحْنُ قَدْ آمَنَّا وَعَرَفْنَا أَنَّكَ أَنْتَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ الْحَيِّ" (يو ٦:٦٩). كذلك في سر الشكر ما يُرى وما يُلمس هو الخبز والنبيذ، أما ما يتم تناوله فهو جسد ودم يسوع المسيح الحقيقيَيْن الإلهيَيْن الممجدَين، تحت شكل الخبز والنبيذ المعطيان من رب المجد لتلاميذ يوم الخميس العظيم، واللذان لا يظهران على حقيقتهما العميقة إلا لعين الإيمان.

كما أن القول إن الخبز والنبيذ المقدمان في الكنيسة يصبحان جسد ودم الرب يسوع فقط لمَن يتناول منهما بإيمان على أنهما جسده ودمه الإلهيين، أما مَن لا يؤمن بذلك فهو يأكل خبزًا ويشرب ونبيذًا أرضيين. هذا القول هو بدعة؛ لأن القرابين الإلهية، غير الدموية، لا ترتبط بأي "سببية" أرضية أو بشرية، وهذا من ثوابت وجدان الكنيسة الأرثوذكسية، فهي لا تتوقف عن كونها جسد ودم يسوع المسيح الإلهيين على إستحقاق أوعدم إستحقاق الإنسان المتناول منهما، لأنها عطية الله المجانية. لأنه كما لا يخضع الرب يسوع المسيح لإرادة الإنسان في أن يكون رب حق وإله حق إن قُبل من الإنسان على أنه ربًّا وإلهًا، أو أن لا يكون رب حق وإله حق إن رُفض منه على أنه ربًّا وإلهًا؛ لأن الإنسان المخلوق لا يُسَيِّر الخالق، أي أن يجعل الله مسيرًا لرغباته وميوله وأهواءه المتغيرة. كذلك الخلاص المُقدم من يسوع المسيح لجميع البشر لا يخضع لإرادة الإنسان بأن يُبطَل؛ لأن الإنسان ليس له دخل في هذا الخلاص المجاني، فمَنْ يؤمن بيسوع المسيح ربًّا وإلهًا ينال الخلاص، ومَنْ لا يؤمن به ربٌّ وإلهٌ يُبطِّل الخلاص بالنسبة لنفسه ولا يناله. هكذا أيضًا سر الشكر لا يخضع لإرادة الإنسان، فالخبز

والنبيذ لا يتوقفان عن كونهما جسد ودم يسوع المسيح الحقيقيَيْن الإلهيَيْن تبعًا لإستحقاق مَنْ يتناول منهما أو عدم إستحقاقه. فمَنْ يتناول منهما بإستحقاق ينال نعمة التقديس عبر القرابين الإلهية غير المتغيرة، أما مَنْ يتناول منهما بدون استحقاق ليس فقط يُبطل بالنسبة لنفسه عمل نعمة التقديس، إن كان من المسيحيين، إكليروسًا وشعبًا، أو من غير المعمدين، بل إنها (القرابين الإلهية) تصبح دينونة له لإجرامه في التجرُء على التناول منها، كما يقول بولس الرسول: "إِذًا أَيُّ مَنْ أَكَلَ هذَا الْخُبْزَ، أَوْ شَرِبَ كَأْسَ الرَّبِّ، بِدُونِ اسْتِحْقَاق، يَكُونُ مُجْرِمًا فِي جَسَدِ الرَّبِّ وَدَمِهِ... لأَنَّ الَّذِي يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ بِدُونِ اسْتِحْقَاق يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ دَيْنُونَةً لِنَفْسِهِ، غَيْرَ مُمَيِّزٍ جَسَدَ الرَّبِّ" (١كو١١:٢٧-٢٩).

والقديس نقولا كباسيلاس (+ ١٣٧١) يقول: «هناك طريقتان تعمل بهما النعمة في القرابين، أولاً: تقديس القرابين. ثانيًا: نحن نتقدس من خلالها بالنعمة. إن عمل النعمة في القرابين، لا يمكن أن يفسده شر إنساني مادام تقديس القرابين ليس مرهونًا بالفضيلة الإنسانية، ولا يمكن لضعفات الناس أن تعرقلها بأي شكل من الأشكال. إلا أن ثانيا، أي عمل النعمة فينا، فيستدعي تعاوننا، وبالنتيجة، فإن من شأن إهمالنا، أن يعيق النعمة. بكلام آخر، النعمة تقدسنا عبر القرابين، إذا كنا مستعدين للتقديس. لكن إذا كنا، من ناحية ثانية، غير مستعدين، فإننا لن نجني نفعًا، وأكثر من ذلك سنعاني خسارة وضررًا. وهذه النعمة، سواء تألفت من غفران الخطايا أو أنها جلبت معها كل بركة ممنوحة للمشتركين في الوليمة المقدسة، بقلب نقي، فالأسقف يصلي كي لا تفارق القرابين. لأن النعمة والبركة يمكنهما فعلاً أن يفارقا القرابين بسبب الشر الإنساني (المتناول منها أو القائم عليها)... إن فصلنا أنفسنا عن الإتحاد بالجسد الكلي القداسة، فإننا عبثًا نشترك في الأسرار المقدسة. إذ لا يمكن أن تنبض الحياة في أطراف مائتة... كل مشروع الفداء الذي أتمه المسيح مرسوم في الحَمَل (الخبز المقدس) أثناء القداس الإلهي هناك نرى رمز المسيح الطفل، رمز المسيح المسوق إلى الموت، والمصلوب والمطعون بالحربة. ثم نرى الخبز محوَّلاً إلى جسد الكلي القداسة الذي إحتمل كل الآلام وقام من الموت وصعد إلى السماء وجلس عن يمين الآب... لأن الأسرار المقدسة هي جسد المسيح ودمه اللذان هما للكنيسة طعام حق وشراب حق. والكنيسة إذ تشترك فيهما، لا تحولهما إلى جسد إنساني كما نفعل بالطعام العادي، بل نتحول إليهما؛ لأن العنصر الإلهي الأسمى يفوق البشري الأدنى. فعندما يدخل الحديد النار يصبح نارًا، وهو لا يعطي النار خاصة الحديد. وعندما نرى حديدًا أبيض حاميًا، يبدوا نارًا لا معدنًا، لأن كل

خواص الحديد قد أتلفت بفعل النار. وهكذا إذا رأى أحد كنيسة المسيح متحدة به ومشتركة في جسده المقدس، فلن يرى سوى جسد الرب... لهذا من المنطقي جدًا أن نقول أن الأسرار المقدسة تمثل الكنيسة... والآن قد تم القداس، وأوشك الإحتفال الإفخارستي أن ينتهي. القرابين قد تقدست وهي نفسها قد قدَّست الأسقف والكهنة الذين معه، ومن خلال الأسقف تتقدس كل الجماعة المؤمنة».

وكذلك الآباء الكنيسة المتوشحون بالله يقولون: «إن القرابين الإلهية، المُؤلَهة، التي هي بحد ذاتها محيية ومغذية تتحول إلى نار محرقة لغير المستحقين لإقتبالها. فكما أن الطعام المغذي يمكن أن يكون وبالاً على الأجسام التي لا قدرة لها على إحتماله، هكذا أيضًا فالقرابين الإلهية لا تفيد إلا الذين إنفتحوا لفعل الروح وتهيأوا به لإقتبال مفعولها الإلهي»}.

٣- تعليم القديس بولس الرسول

إن تعليم بولس الرسول في سر الشكر نجده مكتوبًا في آيتين من رسالته إلى أهل كورنثوس:

الآية الأولى في الأصحاح العشر، فيها يحث المسيحيين على التحفظ من الاشتراك مع الأمم في أعيادهم الوثنية، بقوله: "لِذلِكَ يَا أَحِبَّائِي اهْرُبُوا مِنْ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ. أَقُولُ كَمَا لِلْحُكَمَاءِ احْكُمُوا أَنْتُمْ فِي مَا أَقُولُ. كَأْسُ الْبَرَكَةِ الَّتِي نُبَارِكُهَا، أَلَيْسَتْ هِيَ شَرِكَةَ دَمِ الْمَسِيحِ؟ الْخُبْزُ الَّذِي نَكْسِرُهُ، أَلَيْسَ هُوَ شَرِكَةَ جَسَدِ الْمَسِيحِ (σώματος τοῦ Χριστοῦ)؟ فَإِنَّنَا نَحْنُ الْكَثِيرِينَ خُبْزٌ وَاحِدٌ، جَسَدٌ وَاحِدٌ، لأَنَّنَا جَمِيعَنَا نَشْتَرِكُ فِي الْخُبْزِ الْوَاحِدِ... بَلْ إِنَّ مَا يَذْبَحُهُ الأُمَمُ فَإِنَّمَا يَذْبَحُونَهُ لِلشَّيَاطِينِ، لاَ للهِ. فَلَسْتُ أُرِيدُ أَنْ تَكُونُوا أَنْتُمْ شُرَكَاءَ الشَّيَاطِينِ. لاَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَشْرَبُوا كَأْسَ الرَّبِّ وَكَأْسَ شَيَاطِينَ. لاَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَشْتَرِكُوا فِي مَائِدَةِ الرَّبِّ وَفِي مَائِدَةِ شَيَاطِينَ" (١كو ١٠:١٤-١٧ و٢٠-٢١). من الواضح أن الرسول يخاطب المسيحيين هنا بموضوع معلوم عندهم جميعًا وغير مُنكر من أحد وهو أنهم باشتراكهم في كأس الرب يشتركون في دم المسيح يسوع، وبتناولهم من الخبز وباشتراكهم في مائدة الرب يشتركون في جسد يسوع المسيح، وهذا يؤيده قوله السابق: "أَقُولُ كَمَا لِلْحُكَمَاءِ احْكُمُوا أَنْتُمْ فِي مَا أَقُولُ".

الآية الثانية في الأصحاح الحادي عشر، فيها يُخبر الرسول عن ترتيب سر الشكر مستعملًا الألفاظ عينها التي استعملها الإنجليون بمعناها الحرفي نفسه، حيث يقول: "لأَنَّنِي تَسَلَّمْتُ مِنَ الرَّبِّ مَا سَلَّمْتُكُمْ أَيْضًا: إِنَّ الرَّبَّ يَسُوعَ فِي اللَّيْلَةِ الَّتِي أُسْلِمَ فِيهَا، أَخَذَ خُبْزًا وَشَكَرَ فَكَسَّرَ، وَقَالَ: خُذُوا كُلُوا هذَا هُوَ جَسَدِي

الْمَكْسُورُ لأَجْلِكُمُ. اصْنَعُوا هذَا لِتِذْكَارِي. كَذلِكَ الْكَأْسَ أَيْضًا بَعْدَمَا تَعَشَّوْا، قَائِلاً: «هذِهِ الْكَأْسُ هِيَ الْعَهْدُ الْجَدِيدُ بِدَمِي. اصْنَعُوا هذَا كُلَّمَا شَرِبْتُمْ لِتِذْكَارِي" (١كو ١١:٢٢-٢٥). ثم يقول: "إِذًا أَيُّ مَنْ أَكَلَ هذَا الْخُبْزَ، أَوْ شَرِبَ كَأْسَ الرَّبِّ، بِدُونِ اسْتِحْقَاق، يَكُونُ مُجْرِمًا فِي جَسَدِ الرَّبِّ وَدَمِهِ. وَلكِنْ لِيَمْتَحِنِ الإِنْسَانُ نَفْسَهُ، وَهكَذَا يَأْكُلُ مِنَ الْخُبْزِ وَيَشْرَبُ مِنَ الْكَأْسِ. لأَنَّ الَّذِي يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ بِدُونِ اسْتِحْقَاق يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ دَيْنُونَةً لِنَفْسِهِ، غَيْرَ مُمَيِّزٍ جَسَدَ الرَّبِّ" (١كو ١١:٢٧-٢٩). فمَنْ يريد أن يوضح تعليم الله بأن المسيحي عندما يتناول الأسرار المقدسة إنما يتناول جسد الرب ودمه تحت أعراض الخبز والنبيذ، ليس له عبارات أوضح وأفصح من هذه يُعبِر بها عن هذا المعنى.

ثانيًا: من أقوال آباء الكنيسة

سبق القول إن الكنيسة المقدسة هكذا فهمت عبارات المخلص وهكذا علمت منذ تأسيسها في الأزمنة الرسولية كما تُعلم الآن في حقيقة حضور الرب في سر الشكر وكون الخبز والنبيذ المقدسَيْن هما جسد ودم الرب. وتأكيدًا لذلك تُذكر فيما يلي شهادات آباء الكنيسة ومعلميها في سر الشكر إبتداءً من الأزمنة الرسولية:

القديس أغناطيوس الأنطاكي (+ ١٠٧م)، في تكلمه عن هرطقة المتزهدين، يقول: «إنهم يبتعدون عن الإفخارستيا والصلاة لعدم اعترافهم بأن الإفخارستيا هي جسد مخلصنا يسوع المسيح الذي تألم لأجلنا والذي أقامه الآب بصلاحه» (الرسالة ٧ إلى أهل أزمير). كما يقول: «الإفخارستيا هو جسد ربنا يسوع المسيح الذي تألم عن خطايانا، الذي أقامه الله الآب». ويهاجم القدّيس نفسُه مَن لا يؤمن بحقيقة حضور المسيح في الإفخارستيّا، فيقول في ردّه على أصحاب بدعة الظاهريّة الذين كانوا يقولون إنّ المسيح لم يأخذ جسدًا بشريًّا إلاّ بشكل ظاهريّ وتألّم ظاهريًّا وظاهريًّا مات أيضًا: «إنّهم يمتنعون عن التناول وعن الصلاة لأنّهم لا يقرّون بأنّ الإفخارستيّا هي جسد سيّدنا يسوع المسيح».

والقديس يوستينوس الشهيد (+ ١٦٥م) يقول: «لأننا نتناولهما لا بمثابة خبز عادي ولا بمثابة مشروب عادي لكن كما أنه بكلمة الله لما تجسد يسوع المسيح مخلصنا قد اتخذ لأجل خلاصنا لحمًا ودمًا هكذا تعلمنا أن الغذاء الذي شُكر عليه بدعاء كلامه وبه يغتذي دمنا ولحمنا بحسب الاستحالة هو لحم ودم ذاك المتجسد» (إحتجاج ١).

والقديس إيريناوس أسقف ليون (+ ٢٠٢م)، في تكلمة عن الهراطقة، يقول: «كيف يستطيعون أن يفهموا أن الخبز الذي عليه تم الشكر هو جسد الرب وأن

هذه الكاس هي كأس دمه ما لم يفهموا أنه هو ابن صانع العالم؟» (ضد الهراطقة ٤). كما يقول: «لو كانوا يتناولون الكأس وهي ممزوجة بالماء ويتناولون الخبز وهو مُعد ككلمة الله ذاته. ولو كانت تصير لهم شركة الخبز والخمر سر شكر جسد المسيح ودمه اللذَيْن يغزيان ويثبتان وجود جسدنا. فكيف يستطيعون أن يقولوا أن هذا الجسد الذي يغتذي من جسد المسيح ودمه لا يشترك بموهبة الله الذي هو الحياة الأبدية؟» (ضد الهراطقة ٥).

ومكاريوس القس الأورشليمي (+ ٣٦٦) يقول: «لأنهما (أي الخبز والنبيذ) ليسا رسم جسد ورسم دم كما لفَّق قوم عميان بل هما جسد المسيح ودمه الحقيقي» (إحتجاج ضد ثاوسيانس كتاب ٣).

والقديس أمبروسيوس أسقف ميلان (+ ٣٦٧م) يقول: «وهذا الجسد الذي نقدمه في سر الشكر قد ورد من البتول. ولماذا تبحثون هنا وتطلبون العمل الطبيعي، والموضوع هو جسد يسوع المسيح؟ أفلم يولد الرب نفسه من البتول بحال تفوق الطبيعة؟ هذه هي بشرة يسوع المسيح المصلوب والمدفون. فهذا هو إذًا سر الجسد بعينه بكل الحقيقة» (في الأسرار ٩).

والقديس كيرلس الأورشليمي (+ ٣٨٦م) يقول: «لكونه هو نفسه تكلم وقال عن "الخبز هذا هو جسدي" فمن يجسر بعد ذلك أن يرتاب؟ ولكونه هو نفسه ثبت وقال "هذا هو دمي" فمن يتوهم أو يقول أنه ليس دمه؟ لأن الذيحوَّل وقتًا ما الماء إلى خمر في قانا الجليل بإشارته، أفليس مصدقًا إذ قال أنه حوَّل الخمر إلى دم؟ وقد دُعي إلى عُرس جسدي فصنع فيه تلك العجيبة الفائقة، فكيف لا نعترف له أنه بالأحرى منح بني العُرس (أي تلاميذه) التمتع بجسده ودمه؟ فلنتناولهما إذًا باليقين التام أنهما جسد المسيح ودمه. لأنه برسم الخبز يُعطى لك الجسد، وبرسم الخمر يُعطى لك الدم، لكي بتناولك من جسد المسيح ودمه تصير متحدًا معه جسدًا ودمًا. لأننا بهذه الحالة نصير لابسي المسيح، أي بامتزاج جسده ودمه في أعضائنا، وبهذه الواسطة نصير مُشاركي الطبيعة الإلهية كما يقول بطرس المغبوط. فلا تنظر إذًا إلى الخبز والخمر كأنهما عاديان، إذ هما جسدٌ ودمٌ حسب القول السيدي؛ لأنه وإن كان الحس يظهرهما لك عاديين، لكن الإيمان يُحقق لك أنهما جسدٌ ودمٌ. فلا تحكم إذًا بحسب الذوق الحسي، بل تحقق من الإيمان وتأكد بلا ارتياب أنك قد أُهلت لجسد المسيح ودمه». كما يقول: «عندما أعلن المسيح وقال عن الخبز هذا هو جسدي، مَن الذي تبقى له الجرأة على الشكّ بعد ذلك؟ وعندما أعلن وقال هذا هو دمي، فمَن الذي يجرؤ أيضًا على أن يقول بأنّ هذا

ليس دمه؟ فالذي حول الماء إلى الخمر في قانا الجليل، كيف لا نؤمن ولا نصدّقه عندما يحوّل الخمر دمًا؟» (في الأسرار ٤).

والقديس يوحنا الذهبي الفم (+ ٤٠٧م) يقول: «كم منكم يقولون الآن ليتني كنت أرى هيئة الرب وشكله وملابسه وحذاءه، فها أنت تنظره وتلمسه وتأكله هو نفسه. وأنت تشتهي أن ترى ملابس مع أنه هو يُعطيك ذاته، لاتراه فقط بل تلمسه أيضًا ولتأكله ولتأخذه في داخلك. فلا يتقدم أحد غافلًا ولا متراخيًا، بل فلنبادر جميعنا بحماسة وحمية ونهضة... ويجب أن نكون من كل جهة ساهرين؛ لأن القصاص المُعدَّ للمشتركين على خلاف الاستحقاق ليس صغيرًا. تفطن كم أنت تتمرمر من الذي خانه (يهوذا الإسخريوطي) والذين صلبوه، فاحترس إذًا من أن تصير أنت أيضًا مجرمًا لجسد المسيح ودمه. فإن أولئك قد ذَبحوا الجسد الكلي قدسه، وأما أنت فتتقبله حينئذٍ بنفسٍ دنسةٍ بعد إحسانات كثيرة جدًّا. لأنه لم يكتف بأن يصير إنسانًا ويُضرب ويُذبح عنا بل أن يمزج ذاته فينا، لا بالإيمان فقط بل بالفعل أيضًا جاعلًا إيانا جسدًا له. فأي شيء ينبغي أن لا يكون أقل نقاوة من الذي يتمتع بهذه الذبيحة؟ وأي شعاع شمسي يجب أن لا يكون أقل بهاء من اليد التي تقطع هذا الجسد، والفم الذي يمتلىء من النار الروحانية، واللسان الذي يصطبغ بالدم المخوف؟ فتأمل الكرامة التي قد كُرّمتها، والمائدة التي تمتعت بها. إن الذي تنظر إليه الملائكة وترتعد ولا تجسر أن تحدق فيه بلا خوف من البرق الساطع منه، هذا هو نفسه نحن نغتذي به وبه ننعجن وقد صرنا جسدًا واحدًا للمسيح ولحمًا واحدًا. مَنْ يتكلم بعظائم الرب ويجعل تسابيحه مسموعة؟ أيٌّ راعٍ يُغذي خرافه بأعضائه؟ وما لي أذكر الراعي؟ فكثيرًا ما دفعت أمهات أولادهن بعد أوجاعهن إلى مرضعات أُخر، وهو لم يطق أن يفعل ذلك، بل شاء هو نفسه أن يُغذينا بدمه ويجعلنا مرتبطين ومتحدين بذاته بكل الوسائط» (على متى مقالة ٨٣).

والقديس كيرلس الاسكندري (+ ٤٤٤م) يقول: «فلنبحث بكل طاقتنا في سر الافخارستيا، لقد خلق الله كل شيء للخلود... ولكن الموت دخل إلى العالم بجسد إبليس... فكيف يمكن للإنسان الذي صار تحت سلطان الموت أن يستعيد الخلود؟ كان لا بد من أن يدخل جسده الميت في شركة قوة الله المحيية. أما قوة الله المحيية فهي الكلمة. لذلك صار الكلمة جسدًا، واتّحد بجسد قابل للموت، وأعطاه مناعة ضد الفساد، وجعله جسدًا محييًا. لكن ينبغي أن يحل فينا إلهيًا بواسطة الروح القدس، وان يمتزج بطريقة ما بأجسادنا بواسطة جسده المقدس ودمه

الكريم. وهذا هو ما نناله في الافخارستيا المحيية كما بخبز وخمر». وهذا ما يؤكده أيضًا بكل شدة القديس يوحنا الدمشقي (المائة مقالة ٤).

والقديس سفرونيوس بطريرك أورشليم (+ ٦٣٨م) يقول: «لا ينظرن أحد إلى هذه القرابين المقدسة كأنها رسوم جسد المسيح ودمه بل فليؤمن أن الخبز والخمر حينما يُقدَّمان يستحيلان إلى جسد المسيح ودمه» (جزء ٤).

والقديس يوحنا الدمشقي (+ ٧٤٩م) يقول: «ألا يستطيع أن يصنع الخبز جسدًا لذاته والخمر والماء دمًا؟ فقد قال في البدء "تُنبت الأرض عشبًا وبقلًا يبزر بزرًا، وشجرًا ذا ثمر يعمل ثمرًا كجنسه" وهي إلى الآن إذ يصير مطر تبرز الفروع عينها مسوقة ومقواة بالأمر الإلهي. قال الله "هذا هو جسدي وهذا هو دمي اصنعوا هذا لتذكاري" وبأمره القادر على كل شيء يصير إلى أن يجيء، لأنه هكذا قال "إلى أن أجيء". وبواسطة الدعاء تنحدر قوة الروح القدس المظلِّلة مطرًا لهذه الفلاحة الجديدة. وكما أن كل ما صنعه الله إنما صنعه بفعل الروح القدس، هكذا الآن بفعل الروح القدس تُتمم هذه الأسرار الفائقة الطبيعة التي لا يستطيع شيء آخر أن يسعها إلاَّ الإيمان وحده، ولقد قالت البتول القديسة "كيف يكون لي هذا وأنا لا أعرف رجلًا؟ فأجابها رئيس الملائكة جبرائيل قائلًا: الروح القدس يحل عليكِ وقوة العلي تُظللكِ"، أفتسأل أنت الآن: كيف يصير الخبز جسد المسيح والخمر والماء دم المسيح؟ فأقول لك أنا إن الروح القدس يحل ويصنع هذه الأسرار السامية عن القول والفكر. لكننا نتناول خبزًا وخمرًا، نعم. ولكن الله الذي يعرف الضعف البشري، ويعرف أن طبيعته تنفر غالبًا مما ليست معتادة عليه وتستصعبه، قد تنازل لها كما هو من مراحمه وأعطانا ما يعلو على الطبيعة بما تعتاد الطبيعة... وإذ قد ألف الناس أن يأكلوا خبزًا ويشربوا خمرًا وماءً قرن بهما لاهوته وجعلهما جسده ودمه لنحصل بما هو معتاد وموافق للطبيعة على ما فوق الطبيعة... فالخبز والخمر ليسا رسمًا لجسد المسيح ودمه، بل هما جسد المسيح نفسه متألهًا؛ لأن ربنا نفسه لم يقل: "هذا رسم جسدي"، بل قال: "هذا هو جسدي". ولم يقل "هذا رسم دمي"، بل قال: هذا هو دمي"... وإذا كان بعض دعى الخبز والخمر رسومًا لجسد المسيح ودمه، كما قال باسيليوس المتوشح بالله، فإنه لم يدعوهما بذلك بعد التقديس بل قبل التقديس، فكانت تلك التسمية للتقدمة المجردة، أني للخبز البسيط فقط» (مائة مقالة كتاب ٤).

والقديس ثيوفيلكتوس النيقوميذي (+ ٨٤٠م): «إن الرب بقوله: "هذا هو جسدي"، يوضح أن الخبز بعد تبريكه في السر هو جسد الرب حقيقة وليس

رسمًا لجسده، لأنه لم يقل: "هذا رسم لجسدي"، لكنه قال: "هذا هو جسدي". فهو يتغير بوجه سري وأن يظهر لنا خبزًا"» (على متى ٢٦).

هذا التعليم نفسه يوجد في مؤلفات قديسين كثيرين، أمثال: القديس هيبوليتس، إكليموندس الإسكندري، ترتليانوس، دونيسيوس بطريرك الإسكندرية، غريغوريوس النسيسي، باسيليوس الكبير، وكيرلس بطريرك الإسكندرية، ولاون الكبير... وغيرهم.

ثالثًا: من تعليم المجامع المجامع المسكونية

هذا التعليم نفسه قد علمته المجامع المسكونية، من ذلك:

المجمع المسكوني الأول (٣٢٥م)، الذي أقر بالقول: «لا ينبغي أن ننظر على المائدة المقدسة إلى الخبز والكأس كأنهما مقدمان على بسيط الحال، بل يجب أن نرفع الروح فوق الحواس ونتفهم بالإيمان أن حَمَل الله الرافع خطيئة العالم يستريح ههنا مذبوحًا من الكهنة، وأنهم يتناولون جسد الرب نفسه ودمه الكريم نفسه اللذَين نؤمن بأنهما رسوم لقيامته» (فصل ٣١)

المجمع المسكوني الثالث (٤٣١م)، ثبت رساله القديس كيرلس بطريرك الإسكندرية، التي تشمل في نصها على هذه العبارة: «إننا ننادي بأن ابن الله الوحيد ربنا يسوع المسيح مات بالبشرة. ونقر بقيامته وبصعوده إلى السماء. فنتمم في الكنائس الذبيحة غير الدموية، وهكذا نقترب من الأسرار المباركة ونتقدس إذ نشارك جسد يسوع المسيح مخلصنا المقدس ودمه الكريم... لكن لا ينبغي أن ننظر إلى جسده كما إلى جسد إنسان يُماثلنا من كل الوجوه في أهوائنا، بل يجب أن نوقن أنه بالحقيقة جسد الذي صار وسُميّ لأجلنا ابن الإنسان نفسه».

المجمع المسكوني السابع (٧٨٧م)، يشهد ضد الهراطقة قائلاً: «إن الذبيحة غير الدموية التي تُكمَّل لتذكار آلام المخلص وكل سر التجسد الخلاصي لم يسميها أحد من آلات الروح القدس صورة جسد المسيح، لا من الرسل ولا من الآباء المجيدين الذين لم يتعلموا من الرب أن يتكلموا وينادوا هكذا، بل سمعوه معلنً وقائلًا: "إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه، فليس لكم حياة فيكم"، وأيضًا: "من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت في وأنا فيه". ولم يقل "صورة جسدي"... فلا الرب ولا الرسل ولا الآباء سموا الذبيحة غير الدموية التي تُقدَّم من الكهنة "صورة جسد ودم المسيح"، بل هي جسد المسيح نفسه ودمه نفسه. والذي سمى من الآباء الخبز والخمر رسومًا فقد سماها قبل

تقديسهما وتبريكهما، وهو يؤمن بأنهما بعد التبريك جسد يسوع المسيح ذاته ودمه ذاته» (الجلسة ٦).

الفصل الثاني

الاستحالة الجوهرية

أقول: {{عبارة "استحالة الجوهر" لا تحدد الطريقة التي يتغيّر بها الخبز والخمر إلى جسد الرب ودمه. فهذا لا يستطيع أن يفهمه أحد غير الله. لكن الكلمة تدل فقط على أن الخبز يتحوّل في الواقع والحقيقة والجوهر إلى جسد ربنا يسوع المسيح والخمر يصبح الدم الحقيقي للرب، في حين تظل الأعراض هي هي. فجوهرا الخبز والخمر يتغيران إلى جوهري جسد المسيح ودمه، لكن أعراض الخبز والخمر، أي لونهما ورائحتهما الخ... تستمر في الوجود على نحو عجائبي وتبقى خاضعة لإدراك الحواس}}.

فحضور يسوع المسيح في سر الشكر الإلهي باستحالة القرابين يقتضي، كما تقدم، كون القرابين المقدسة بعد تقديسها وتبريكها ليست خبزًا بسيطًا ولا خمرًا بسيطة بل جسد الرب نفسه ودمه نفسه يتناولهما المؤمن. ينتج أن حضور يسوع المسيح في السر لا يتم بولوجه أو نفوذه في الخبز والخمر مع بقائهما على حالتهما وتمام جوهرهما بشكل أن ولوجه لا يؤثر فيهما شيئًا آخر سوى أن المسيح يوجد بجسده ودمه في الخبز أو مع الخبز أوتحت الخبز، كما يعتقد ويزعم أتباع لوثر. بل كيفية حضوره في السر إنما هي تغير وانتقال واستحالة (تحول) جوهر الخبز والخمر إلى جسد المسيح الحقيقي ودمه الحقيقي. وبالحقيقة لا يمكن أن يصير الخبز والخمر جسد يسوع المسيح ذاته ودمه ذاته إلا بانتقال جوهرهما إلى جسد يسوع المسيح ودمه، بمعنى بالاستحالة الجوهرية وحدها فقط، ويؤيد هذه الحقيقة البراهين الآتية:

أولاً: الكتاب المقدس

بالعبارات نفسها للكتاب المقدس التي وردت وبحث فيها سابقًا. فإن الرب عندما كان يَعِد بتسليم سر الشكر قال في جملة ما قاله: "أَنَا هُوَ الْخُبْزُ الْحَيُّ الَّذِي نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ. إِنْ أَكَلَ أَحَدٌ مِنْ هذَا الْخُبْزِ يَحْيَا إِلَى الأَبَدِ. وَالْخُبْزُ الَّذِي أَنَا أُعْطِي هُوَ جِسْمِي (ἡ σάρξ μού) الَّذِي أَبْذِلُهُ مِنْ أَجْلِ حَيَاةِ الْعَالَمِ" (يو ٦:٥١). وهذا الخبز الذي سماه "جسمه" عندما وعد به، سماه "جسده" حين تسليمه السر لتلاميذه بقول متى: "أَخَذَ يَسُوعُ الْخُبْزَ، وَبَارَكَ وَكَسَّرَ وَأَعْطَى التَّلاَمِيذَ وَقَالَ: خُذُوا كُلُوا. هذَا هُوَ جَسَدِي (τὸ σῶμά μου)" (مت ٢٦:٢٦)، وكذلك بقوله: "وَأَخَذَ (يَسُوعُ) الْكَأْسَ وَشَكَرَ وَأَعْطَاهُمْ قَائِلاً... هذَا هُوَ دَمِي"

(مت ٢٦:٢٧ و٢٨). والقديس بولس الرسول أيضًا يقول: "كَأْسُ الْبَرَكَةِ الَّتِي نُبَارِكُهَا، أَلَيْسَتْ هِيَ شَرِكَةَ دَمِ الْمَسِيحِ؟ الْخُبْزُ الَّذِي نَكْسِرُهُ، أَلَيْسَ هُوَ شَرِكَةَ جَسَدِ (τοῦ σώματος) الْمَسِيحِ؟" (١كو ١٠:١٦)، كما يقول: "إِذًا أَيُّ مَنْ أَكَلَ هذَا الْخُبْزَ، أَوْ شَرِبَ كَأْسَ الرَّبِّ، بِدُونِ اسْتِحْقَاق، يَكُونُ مُجْرِمًا فِي جَسَدِ (τοῦ σώματος) الرَّبِّ وَدَمِهِ" (١كو ١١:٢٧).

فالحقيقة واضحة من كل هذه الآيات أن الرب والرسول يسميان الخبز "جسد المسيح" والخمر "دم المسيح" بعبارات صريحة. ولم يرد في الكتاب على الاطلاق أن جسد يسوع المسيح يكون مع الخبز أو في الخبز أو تحت الخبز. ثم إن الرب في وعده لليهود لم يقل: "إن الخبز الذي أنا أعطيه سيكون فيه جسمي"، بل قال: "الْخُبْزُ الَّذِي أَنَا أُعْطِي هُوَ جِسْمِي (ἡ σάρξ μού)" (يو ٦:٥١). كما لم يقل أيضًا: "خذوا كلوا أن في هذا أو مع هذا أو تحت هذا يكون جسدي"، بل قال: "هذَا هُوَ جَسَدِي (τὸ σῶμά μου)... هذَا هُوَ دَمِي" (مت ٢٦:٢٦و٢٨). فمع كون الخبز جسد المسيح والخمر دمه لا سبيل لانتقالهما إلى الجسد والدم سوى استحالة جوهرهما.

ثانيًا: التسليم الرسولي

إن أباء الكنيسة ومعلميها أيضًا يترسخ في إيمانهم أن الخبز والخمر في سر الشكر ينتقلان ويتغيران ويستحيلان إلى جسد يسوع المسيح، فإن:

فالقدّيس أثناسيوس الكبير (+ ٣٧٣) في حديثه عن الإفخارستيّا، يقول: «سترى الكهنة يهيّئون خبزًا وخمرًا يضعونهما على المذبح. وما دامت الأدعية والصلوات لم تبدأ، يبقى الخبز مجرّد خبز والخمر مجرّد خمر. ولكن، عندما يتمّ رفع الأدعية والصلوات، آنذاك يتحوّل الخبز والخمر إلى جسد الربّ ودمه».

والقدّيس كيرلّس الأورشليميّ (+ ٣٨٦) يقول: «إنّ الخبز والخمر كانا، قبل استدعاء الثالوث الأقدس عليهما، مجرّد خبز وخمر عاديَّين. ولكن بمجرّد ما تمّ هذا الاستدعاء وهذا الابتهال، تحوّل الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه». كما يقول: «إن الرب قد حوَل الماء وقتًا ما إلى خمر في قانا الجليل بلحظة، أفليس هو مصدَّقًا بتحويله الخمر إلى دم؟ فبعد الدعاء يصير الخبز جسد المسيح» (في الأسرار ٤).

والقديس غريغوريوس النسيسي يقول: «إنني أعتقد وأومن بالحقيقة أن الخبز يستحيل اليوم أيضًا إذ يتقدس بالكلمة الإلهية إلى جسد الإله الكلمة» (تعليمه الفصل ٣٧).

والقديس أمبروسيوس يقول: «كلما تناولنا القرابين المقدسة التي تتحول سريًا بالطلبة المقدسة إلى جسد المسيح ودمه نخبر بموت الرب» (في الإيمان ٤). وفي محل آخر يقول: «إننا نبرهن أن هذا لم تخرجه الطبيعة بل قدسته البركة، والبركة أقوى كثيرًا من الطبيعة لأن الطبيعه عينها بالبركة تتحول» (في الأسرار ٤).

والقديس ثيودوروس أسقف هرقلية (+ ٣٥٥م) يقول: «إن الرب يسوع قال "هذا هو جسدي وهذا هو دمي" لكي تؤمنوا أن هذه ليست صورًا بل الخبز هو جسد الرب نفسه والخمر هو دمه نفسه وأنهما يتحولان إلى جسد ربنا ودمه بفعل الروح القدس الذي لا يُنطق به» (على متى ٢٦).

والقديس يوحنا الدمشقي يقول: «إن الخبز والخمر ذاتهما ينتقلان إلى جسد الإله ودمه، وإذا كنت تسأل عن الطريقة كيف يصير ذلك؟ فيكفيك أن تسمع أنه بالروح القدس، كما أن الرب بالروح القدس أيضًا أقام ذاته وفي ذاته بشرة من والدة الإله القديسة. ولا نعلم شيئًا أكثر من ذلك بل إن كلمة الله صادقة وفعالة وقادرة على كل شيء، وأما الطريقة فلا تُدرك ولا تُفحص. وليس مستقبحًا أن نقول هذا أيضًا وهو كما أن الخبز والخمر والماء تنتقل طبعًا بالأكل والشرب إلى جسد ودم الذي يأكلها ويشربها ولا تصير جسدًا آخر غير جسده الأول، هكذا خبز التقدمة أيضًا والخمر والماء تستحيل بالدعاء وحلول الروح القدس بطريقة تفوق الطبيعة إلى جسد يسوع المسيح ودمه وليسا بعد ذلك جسدين بل هما جسد واحد فقط» (مائة مقالة ٤). ويقول أيضًا: «إذا كنتم تسعون لمعرفة كيف يتم ذلك، يكفي أن تعلموا بأن ذلك يتم بواسطة الروح القدس... ولا نعرف شيئاً أكثر من أن كلام الله صحيح وفاعل وكلّي القدرة، ولكنه يفوق الإدراك» (مائة مقالة ٤ و١٣).

والقديس ثيوفيلكتس أسقف نيقوميذيا (+٨٤٠ م) يقول: «واصغ، لأن الخبز الذي نأكله نحن حين تناولنا الأسرار ليس رسم جسد المسيح بل هو جسد الرب نفسه، لأنه لم يقل: أن "الخبز الذي أنا أعطيه هو رسم جسدي"، بل قال "هو جسدي". وهذا الخبز يستحيل بكلام لا يلفظ به إلى جسد الرب بالبركة السرية وحلول الروح القدس» (على يوحنا ٦)، كما يقول أيضًا: «لأن الخبز ليس رسمًا للجسد الرباني بل يستحيل إلى جسد المسيح ذاته» (على مرقس ١٤).

ولكي يبرهن رعاة الكنيسة الأقدميون ويفسروا إمكان انتقال الخبز والخمر إلى جسد يسوع المسيح ودمه يذكرون قدرة الله على كل شيء (يوحنا الذهبي الفم في الشركة والصليب ٣) (أمبروسيوس في السرار ٤)، وأفعالها الصادرة كل يوم وخلق العالم من العدم (أمبروسيوس في السرار ٤) (يوحنا الدمشقي مائة مقالة ٤)، وسر التجسد الخلاصي (أمبروسيوس في السرار ٩) (يوحنا الدمشقي مائة مقالة ٤)، والعجائب التي وردت في الكتب المقدسة وعلى الخصوص تحويل الماء إلى خمر في عرس قانا الجليل (كيرلس الأورشليمي في الأسرار ٤) (أمبروسيوس في السرار ٩)، وتحويل الخبز والخمر والماء وسائر الأغذية إلى دم ولحم وهو أمر يحصل فينا كل يوم لأن هذا الانتقال الجوهري يحدث فيما بطريقة غامضة عنا غموضًا كليًا (يوحنا الدمشقي مائة مقالة ٤).

ثالثًا: تعبير "الاستحالة الجوهرية"

إن التعبير في القول "الاستحالة الجوهرية" لا يفسر الطريقة التي بها يتحول الخبز والخمر إلى جسد الرب ودمه؛ لأنه ما من أحد يستطيع أن يدرك هذا الأمر غير الله، وكل ما يبزله الإنسان من جهد في إدراك هذا السر ليس سوى دليل حماقة وعدم ورع. وما يُقصد بهذه العبارة هو الإيضاح أن الخبز والخمر يستحيلان بعد تبريكهما إلى جسد الرب ودمه لا على شكل رمزية أو إشارة، ولا بحسب غزارة النعمة، ولا بمشاركة وبحلول لاهوت الابن الوحيد، ولا بأن ذلك نتيجة إخلاط أو تغيير يحدث في السر، بل أن الخبز والخمر يصيران حقيقة وفعلًا وبحسب الجوهر جسد الرب نفسه ودمه نفسه. فوجه حضور الرب في السر هو الاستحالة الجوهرية، وهو غير مُدرَك.

إن لفظة "الاستحالة" أو"الانتقال" هما الألفاظ القديمة في الكنيسة، وأما لفظ "الاستحالة الجوهرية" فاستعماله مُحدث يقصد به زيادة الإيضاح لا أكثر. وهي ضمان الاتّحاد بالمسيح واتّحاد المؤمنين بعضهم ببعض:

فالقدّيس أغناطيوس الأنطاكيّ (+ ١٠٧م) يوصي أهل فيلادلفيا قائلاً: «حاولوا جهدكم أن يكون لكم إفخارستيا واحدة، لأن جسد ربنا يسوع المسيح واحد. واحدة هي الكأس لوحدة دمه، وواحد هو المذبح أيضًا، وواحد هو الأسقف مع كهنته والشمامسة».

من هنا، تشديد الكنيسة الأرثوذكسيّة على عدم إقامة الكاهن أكثر من قدّاس واحد في اليوم، وذلك لأنّ الرعيّة الواحدة مدعوّة إلى أن تكون واحدة لا عدّة وحدات متفرّقة.

يرفض اللاهوت الارثوذكسي اللاهوت الكاثوليكي الذي يقول أن ما يتحوّل في الافخارستيا هو فقط جوهر الخبز والخمر فيما أشكال الخبز والخمر تبقى على ما هي عليه، كما يرفض اللاهوت اللوثري الذي يقول بوجود جوهرين معًا. فالمسيح، في نظر اللاهوت الارثوذكسي، لا ينزل من السماء ليحتجب تحت أشكال الخبز والخمر، كما يقول الكاثوليك، ولا إلى جانب جوهر الخبز والخمر، كما يقول اللوثريون .

يوضح افدوكيموف في كتابه "الأرثوذكسية" المفهوم الأرثوذكسي لحضور المسيح ولتحوّل الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه، فيقول: «إنّ جسد المسيح لم يعد من هذا العالم، إنه جسد سماوي. إنه ليس "في أي مكان"، لأنه خارج المكان ويسمو كل حيّز مكاني. ولكنه يستطيع متى شاء أن يوجد في أيّ موضع مكاني ويتجلّى فيه. إن هذا الحصر في موضعٍ ما ضروري لنا، وبدونه لا نستطيع أن ندخل في شركة غير المنظور. ولكن الجسد السماوي "ليس تحت الخبز ولا معه ولا فيه" كما يقول لوثر، ولا "مكان الخبز" كما يقول الكاثوليك؛ بل هو هذا الخبز: "هذا بعينه هو جسدي"».

وهذا المفهوم الأرثوذكسي بحسب القديس إيريناوس (+ ٢٠٢م) هو: «إن الخبز الافخارستي باستدعاء الروح القدس لا يحجب حضورًا آخر، بل يوحّد الطعام السماوي وطعام الأرض إذ يجعلهما الشيء نفسه، وتلك هي المعجزة. يغطس الكاهن الحَمَل في دمه وإذا هو الجسد الحيّ وليس علامة أو خداع الأعراض وليس هو تجسّد ثانٍ للمسيح في الأشكال بل التحوّل الكامل، تحوّل الجوهر والأعراض إلى جسد سماوي. ليست أعراض الخبز هي التي تبقى، بل حالة أعيننا التي لا تقوى على تأمل الجسد السماوي المحافظ على خداع الأشكال». إن خطأ العقيدة يقوم على الاهتمام بالموضوع وليس بالشخص، بالخبز وليس بالإنسان.

ويوحنا الدمشقي يقول: «إن استدعاء الروح القدس يحقّق ما لا يمكن أن يقبله إلاَّ الإيمان وحده».

لذا يجب ألا نحلِل المعجزة، على غرار التحليل الكيميائي، تبعًا لحواسنا؛ بل يجب بالحريّ أن نتهم حواسنا بأنها لا ترى المعجزة الحقيقية، الحقيقة السماوية. هناك شَبَه مع معجزة تجلّي المخلص على جبل ثابور، فليس المسيح هو الذي يتغيّر بل أعين الرسل التي تنفتح زهاء لحظة. كما أنه من غير المُجدي التفلسف في هذا الموضوع؛ لأن الغربيين في عقائدهم يحاولون الولوج

إلى قلب المعجزة وتفسير ما تعنيه، أما الشرقيون فينظرون بأعين الإيمان ويرون لأوّل وهلة الجسد والدم ولا شيء سوى ذلك.

رابعًا: حضور الرب في السر بنفسه ولاهوته

إن ربنا يسوع المسيح حاضر في سر الشكر ليس بجسده ودمه فقط بل أيضًا بنفسه المتحدة مع جسده بلا انفصال وبلاهوته المتحد أقنوميًا وبلا انقسام ولا اختلاط ولا تشويش مع طبيعته البشرية، ولهذا قال يسوع في وعده لليهود بسر الشكر الإلهي: "مَنْ يَأْكُلْ جِسْمِي (μου τὴν σάρκα) وَيَشْرَبْ دَمِي يَثْبُتْ فِيَّ وَأَنَا فِيهِ. كَمَا أَرْسَلَنِي الآبُ الْحَيُّ، وَأَنَا حَيٌّ بِالآبِ، فَمَنْ يَأْكُلْنِي فَهُوَ يَحْيَا بِي" (يو ٦:٥٦ و٥٧).

وعدم الإيمان بحقيقة حضور المسيح في الإفخارستيّا يصبّ في خانة مَن ينكرون حقيقة تجسّد المسيح وصلبه وقيامته. وانطلاقًا من حقيقة التجسّد يدافع:

القدّيس يوستينس الشهيد (+ ١٦٧) بقوله: «بالطريقة عينها التي تجسّد بها كلمة الله والتي بها اتّخذ المسيح جسدًا ودمًا، يصبح الغذاء المقدّس بالصلاة التي علّمنا إيّاها جسد ودم هذا المسيح المتجسّد».

والقدّيس إيريناوس أسقف مدينة ليون (+٢٠٢) بقوله: «الكأس الممزوج والخبز المصنوع يتقبلان كلمة الله، ويصيران إفخارستياً جسد المسيح ودمه» (الرد على الهرطقة ٤).

والآباء القديسون يُعلمون أيضًا "أننا نأكل الحَمَل كله":

فالقديس أفرام السرياني يقول: «إنكم تشتركون بجسد الرب الكلي قدسه بإيمان كامل غير مرتابين بأنكم تأكلون الحَمَل نفسه». وفي محل آخر يقول: «إن جسد الرب يتحد بجسدنا على وجه لا يلفظ به ودمه أيضًا الطاهر يُصب في شراييننا وهو كله بصلاحه الأقصى يدخل فينا» (جزء ٣).

فالقديس أغناطيوس الأنطاكي (+ ١٠٧) يوصي أهل فيلادلفيا قائلاً: «حاولوا جهدكم أن يكون لكم إفخارستيا واحدة، لأن جسد ربنا يسوع المسيح واحد. واحدة هي الكأس لوحدة دمه، وواحد هو المذبح أيضًا، وواحد هو الأسقف مع كهنته والشمامسة». كما يقول: «الإفخارستيا هو جسد ربنا يسوع المسيح الذي تألم عن خطايانا، الذي أقامه الله الآب».

والقديس نفسه يهاجم مَنْ لا يؤمن بحقيقة حضور المسيح في الإفخارستيا، فيقول في ردّه على أصحاب بدعة الظاهريّة الذين كانوا يقولون إن المسيح لم يأخذ جسدًا بشريًا إلاّ بشكل ظاهريّ وتألم ظاهريًا وظاهريًّا مات أيضًا: «إنّهم

يمتنـعون عن التنـاول وعن الصلاة لأنهم لا يقرّون بأن الإفخارستيا هي جسد سيدنا يسوع المسيح».

كما كان الآباء القديسون يلاحظون أيضًا أن هذا السر يُدعى شركة، لأنه به يُشترك بلاهوت يسوع المسيح:

والقديس يوحنا الدمشقي (+ ٧٤٩م) يقول يقول: «يدعى سرُّ الشكر الإلهي مناولةً لأننا بواسطته نتناول ألوهية يسوع. ويسمى أيضاً شركةً وهي شركة حقيقية، لأننا بواسطتها نشترك مع المسيح ونتحد بجسده وبألوهيته، وفي الوقت نفسها، وبواسطتها، فإننا نشترك فيما بيننا ونتّحد، وبما أننا نتناول من الكأس المشتركة جسد ربنا ودمه فإننا نصبح كلنا جسد المسيح الواحد ودمه وأعضاء بعضنا البعض، طالما أننا شركاء جسد المسيح» (مائة مقالة ٤).

أقول: {{إن يسوع في وعده لليهود بسر الشكر الإلهي قال لهم: "مَنْ يَأْكُلْ جِسْمِي (μου τὴν σάρκα) وَيَشْرَبْ دَمِي يَثْبُتْ فِيَّ وَأَنَا فِيهِ. كَمَا أَرْسَلَنِي الآبُ الْحَيُّ، وَأَنَا حَيٌّ بِالآبِ، فَمَنْ يَأْكُلْنِي فَهُوَ يَحْيَا بِي" (يو ٦:٥٦ و٥٧)، غير أنه في كل مرة مَنْ يشترك في التناول من جسد المسيح ودمه الأقدسين يعود ويُخطأ مرة أخري؛ ذلك أنه في سر الشكر (الإفخارستيا) يتم بالحقيقة إتحاد الإنسان بالمسيح والثبات فيه، وفي نفس الوقت لا يلغي حرية الإنسان واختياره. فالاتحاد بالمسيح والثبات فيه ليس معناه الثبات في لاهوته، بل معناه التأله بالنعمة؛ بمعنى أن المسيح هو الذي يمنح الإنسان الحياة الأبدية، ويجعله شريك الطبيعة الإلهية مؤلِّهًا إياه بالنعمة إن كان منفتحًا لعمل القرابين الإلهية.

وصلاة قبل التناول (المطالبسي) تُوضح أن الجسد والدم الإلهيين اللذين نتناولهما في سر الشكر يحولانا إليهما سريًا ويسريا حياة يسوع المسيح الإلهية فينا، ولا يتحولان إلينا كالطعام البائد، فيؤلِّهان الروح ويغذيان العقل، وذلك كما يصلي الأسقف والكهنة والشمامسة مع الشعب قائلين: «إرتعد أيها الإنسان عند نظرك الدم المُؤلِّه لأنه جمر تحرق غير المستحقين، إن جسد الإله (θεοῦ τὸ Σώμά) يُؤَلهني (θεοῖ με). يُؤَله الروح (Θεοῖ το πνεῦμα) ويغذي العقل على منوال غريب... لقد أشغفتني بشوقك أيها المسيح... وأهلني أن أمتلئ من النعيم الذي فيك... لا تصر لي هذه القدسات لمحاكمة من تلقاء عدم استحقاقي... وأما أنا فخير لي الإلتصاق بالله وأن أضع على الرب رجائي».

كما أن في صلاة بعد التناول (صلاة الشكر)، نطلب من الله الآب أن يجعلنا مسكنًا لروحه القدوس، ونطلب من الرب يسوع المسيح أن يكون جسده الطاهر

ودمه الكريم للحياة الأبدية ولغفران الخطايا، كما نشكر والدة الإله كلية القداسة لأنها أهلتنا لأن نصير شركاء في جسد ودم ابنها الرب يسوع المسيح، بقولنا: «إجعلني (أيها الآب) مسكنًا لروحك فقط فلا أكون مسكنًا فيما بعد للخطيئة حتى إذا صرت بيتًا لك بدخولي في الشركة يهرب مني كل فاعل شر وكل هاجس وهوى... ليصر لي جسدك المقدس (Τὸ σῶμά σου τὸ ἅγιον) أيها الرب يسوع المسيح إلهنا للحياة الأبدية ودمك الكريم لغفران الخطايا، ولتكن لي مناولة قرابينك هذه للصحة والفرح والسرور... أيتها السيدة والدة الإله الكلية القداسة... أشكركِ لأنكِ أهلتيني أنا غير المستحق لأن أصير شريكًا في جسد (Σώμάτος) ابنك الطاهر ودمه الكريم»}}.

خامسًا: كمال جسد الرب ودمه في التناول

إن جسد الرب وإن كان يُفصَّل ويُجزَّأ في سر الشكر ويوزَّع مع دمه على المؤمنين تحت شكل الخبز والنبيذ، اللذين بهما يصير الجسد والدم منظورين وملموسين، لكنهما كاملان بذاتهما وغير منقسمين؛ لأن جسد المسيح الحي كما يقول بولس الرسول عن المسيح الحي "بَعْدَمَا أُقِيمَ مِنَ الأَمْوَاتِ لاَ يَمُوتُ أَيْضًا" (رو ٦:٩)، وهذا الجسد هو جسد ممجد روحي وغير مائت، كما يقول بولس الرسول أيضًا عنه: "عَالِمِينَ أَنَّ الْمَسِيحَ بَعْدَمَا أُقِيمَ مِنَ الأَمْوَاتِ لاَ يَمُوتُ أَيْضًا. لاَ يَسُودُ عَلَيْهِ الْمَوْتُ بَعْدُ" (رو ٦:٩). لذا نؤمن أن كل جزءٍ من الخبز والنبيذ في سر الافخارستيا حتى أصغر الأجزاء منها ليس هو هذا أو ذاك من جسد يسوع المسيح ودمه، بل هو كل جسده ودمه مع نفسه ولاهوته؛ وبقول آخر هو الإله التام والإنسان التام. وإيمان الكنيسة الواحدة الجامعة الرسولية هذا نجده في كتب خدمة القداس الإلهي الكنائسية في خدمة الكلام الجوهري، حيث كُتب فيها: «يُفصَل ويُجزَّأ حَمَل الله الذي يُفصَل ولا يُقسم، الذي يؤكل منه دائمًا ولا يفرغ أبدًا لكنه يُقدس المشتركين به».

أقول: {{في القداس الإلهي عندما يُفَصِل الأسقف أو الكاهن الحَمَل (الخبز المقدس) إلى أربعة أجزاء يتلو قائلاً: «يُفصَّل ويُجزَّأ حَمَل الله، الذي يُفصَّل ولا ينقسم ويؤكل دائمًا ولا ينفذ أبدًا، ويُقدس المشتركين به». وبتناول كل مؤمن جزء من الحَمَل (الخبز المقدس) إنما هو يتناول الحَمَل كامل غير مُتقسِّم فيما بينه وبين غيره من مجموع المؤمنين المتناوِلين}}.

سادسًا: وحدة السر في جميع الكنائس

إن سر الشكر وإن كان يُتمم في جميع كنائس المسيح المتفرقة في المسكونة فجسد المسيح هو هو ودمه واحد في جميع الأمكنة والأزمنة، والمسيح حاضرًا فيه هو نفسه بكليته إلهًا تامًا في كل مكان وزمان. هذه الحقيقة يعترف بها اعترافًا صريحًا أساقفة الشرق المستقيم رأيهم في رسالتهم (بند ١٧)، بقولهم: «أنه وإن كانت تُتمم في المسكونة خدمات كثيرة في ساعة واحدة بعينها لكن المسيح ليست له أجساد كثيرة، بل هو ذاته يحضر وجسده واحد ودمه واحد في كنائس المؤمنين المتفرقة جميعها. وليس ذلك بأن جسد السيد الذي في السماء ينحدر على الذابح، بل خبز التقدمة الموضوع في جميع الكنائس المتفرقة ينتقل ينتقل بعد التقديس ويستحيل بجوهره ويصير ويصبح الجسد الواحد الذي في السماء نفسه؛ لأن جسد المسيح واحد لا كثيرٌ في أماكن كثيرة. لذا يُسمى هذا السر بنوع خصوصي عجيبًا وهو عجيب، وبالإيمان وحده مُدرَك».

سابعًا: استمرار الأسرار على حالها بعد الاستحالة

إن الخبز والنبيذ بعد أن يتقدسا ويستحيلان سريًا إلى جسد الرب ودمه نفسه يلبثان دائمًا جسد الرب ودمه، أي أن حضور الرب في الأسرار بعد التقديس هو ثابت دائم وغير منقطع في وقت الشركة وبعده. إن الكنيسة الأرثوذكسية تؤمن الإيمان الحق، وهو أن القرابين لا يتغير جوهرها الإلهي وطبيعتها، بل تلبث على الدوام جسد الرب ودمه وقت الشركة وبعده. وهذا يتضح من من تسليم الرب سر الشركة، إذ قال لتلاميذه حينما أعطاهم الخبز والنبيذ: "هذَا هُوَ جَسَدِي... هذَا هُوَ دَمِي" (مت ٢٦:٢٦ و٢٨)، فكان الخبز جسده والنبيذ دمه قبل أن يأكلهما التلاميذ حسب أمره. وقد ساء اعتقاد أتباع لوثر بأن حضور الرب محصور في وقت اشتراك المؤمنين بالأسرار وأن القرابين بعد الشركة ليست سوى خبز بسيط ونبيذ بسيط.

وعلى هذا الإيمان الحق للكنيسة الأرثوذكسية فهي تُتمم خلال الصوم الكبير المقدس في الأيام من الإثنين إلى الجمعة في صلاة الغروب من كل أسبوع خدمة "القدسات السابق تقديسها (البروجِيازْمِني)" بقرابين سبق تقديسها في يوم الأحد السابق لهذه الخدم، الذي يقام فيه خدمة القداس الإلهي. وهذه العادة قديمة عندها وهي لا ترتاب في صحتها، بل تؤمن إيمانًا ثابتًا بأن التي تَقدَّم تقديسها في خدمة سابقة تحفظ طبيعتها غير متغيرة في خدمة القدسات السابق تقديسها الثانية وتُناول للمؤمنين جسد المسيح ودمه نفسه، كما ذُكر في القانون ٥٢ لمجمع ترولو والقانون ٤٩ مجمع اللاذقية.

كما أن الكنيسة الأرثوذكسية كانت ولا تزال تناول الشركة المقدسة للمرضى تحت الشكلين معًا، أي تحت شكل الخبز المقدس ممزوجًا النبيذ المقدس، بعد إتمام القداس الإلهي في نفس اليوم. وإن كان في وقت لا يُتمم فيه القداس الإلهي تناولهم من الذخيرة المقدسة المحفوظة في الهيكل على المائدة المقدسة، وبهذا يكون المسيح حاضرًا بجسده ودمه الإلهيين في الكنيسة. والكنيسة تُقدس تلك القدسات، الذخيرة المقدسة، يوم الخميس العظيم بطقس خاص بتلك الخدمة يمزج فيه النبيذ المقدس بالجسد المقدس، وتحفظها على مدار السنة كلها. وعلى هذه الصورة كان الشمامسة يحملون الأسرار المقدسة للمرضى في بيوتهم، كما كان بعض المسيحيين يأخذونها من رعاة الكنيسة ويحملونها معهم في الأسفار والبعض إلى البراري للاشتراك بها.

أما عن حفظ الجوهرة (الحَمَل) في الأواني المقدسة، إن كان للقدسات السابق تقديسها أو للذخيرة المقدسة. من المعلوم أن الكنيسة منذ القرون الأولى كانت لها عادة أن ترسل القدسات مع الشمامسة للمسيحيين المرضى الذين لم يحضروا القداس الإلهي (أوامر الرسل ٨ والقانون ١٣ للمجمع المسكوني الأول) وللأسرى المعترفين بالإيمان الذين في الحبس.

في هذا يقول القديس يوستينوس الشهيد (+ ١٦٥م): «يناول الشمامسة جميع الحاضرين من الخبز والخمر والماء ويحفظون جزءًا من التقدمة للغائبين» (إحتجاج ١).

أما النساك فكانوا يأخذون الأسرار المقدسة إلى البراري لكي يتناولوا حين الضرورة جسد المخلص ودمه (ترتليانوس في الصلاة ١٤).

أقول: {{إن ليتورجيا القُدُّسات السابق تقديسها الإلهية [" προηγιασμένη θεία λειτουργία" (ليتورجيا البروجِيازْمِني الإلهية)] لا تجري فيها صلاة التقدّيس (تحويل الخبز والخمر الى جسد المسيح ودمه المُقدَّسَيْن)، كما يصير في سائر القداديس، بل يتم مناولة قُدُّسات سبق تقديسها في قداس سابق. وهي الخدمة التي تقام في أيام الصوم الفصحي باستثناء يومي السبت والأحد. وفي ممارستنا الحالة تقام يومي الأربعاء والجمعة .

يغلب الظن أن هذه الخدمة نشأت في القرن السادس في أنطاكية وانتقلت من هناك إلى القسطنطينية. هذه الممارسة في الكنيسة تعود إلى بداية القرن السابع (٦١٥م) في زمن البطريرك سرجيوس القسطنطيني. وأقدم برهان لوجود خدمة القداس السّابق تقديسه يعود إلى القرن الثامن يوجد في "يوميات فصحية".

وهناك مؤشر آخر يوجد في حياة القدّيس غريغوريوس الخوزبي (أواخر القرن السادس)، كاتب سيرته تلميذه أنطونيوس يُخبر كيف كانت للقدّيس عادة إرسال شاب اسمه "زينون" إلى أريحا يوم الأحد بعد السهرانة ليجلب خبز التقدمة لاستعمال الزوار في الدير.

وأصل هذه الخدمة هي ممارسة المناولة الشخصية، أي مناولة المؤمن نفسه من الخبز المقدّس الذي كان يحضره من القداس الإلهي إلى البيت. بعض الدّارسين يعود بهذه الممارسة إلى زمن الرسل في القرون الأولى، ففي أواخر القرن الثاني في أفريقيا هناك تقليد بان يأخذ المؤمنون خبزًا مقدسًا من الكاهن ويحفظونه في بيوتهم لكي يتمكنوا من أن يتناولوا منه كل يوم. إلاّ أن القدّيس باسيليوس الكبير يقول إنّ هذه العادة نشأت في زمن الإضطهاد، وكتب: «من البديهي أنّ كلّ من أُجبر في زمن الاضطهاد على تناول الخبز المقدّس بيديه من دون كاهن لا يرتكب جرمًا، خاصة أنّ التقليد يجيز هذه الممارسة من الحوادث عينها». ولم تندثر عادة المناولة الذاتية مع انتهاء الاضطهادات، بل على العكس القدّيس باسيليوس الكبير (+ ٣٧٩م) كان يشجع هذه الممارسة كثيرًا مرتكزًا بذلك على أُسُسٍ روحية، ففي رسالته ٩٣ يقول: «حسن أن يتناول المرء من جسد ودم المسيح لأنّه كُتب: "من يأكل جسدي ويشرب دمي فله الحياة الأبدية". ويحتفظ المتوحدّون في الصحراء حيث لا يوجد كاهن بالمناولة المقدّسة في بيوتهم. أما في الإسكندرية ومصر، فيأخذ عامة المؤمنين كلّهم جزءًا من القدّسات ويحتفظون به في بيوتهم، ليساهموه منها متى شاؤوا... ». كما أن القديس باسيليوس نفسه بعد إقامته أول قداس إلهي أخذ من القدسات إلى منزله لكي يتناول منها وهو على سرير الموت. وفي أيام القدّيس يوستينيانوس الشهيد كان الشمامسة يُحضرون المناولة إلى بيوت المسيحيين الذين لسبب ما لم يستطيعوا المشاركة في القُدُّسات مع الجماعة.

هذا وتشير الوثائق التاريخية إلى أن هذه الممارسة استمرت خاصة في أوساط الرهبان. وعلى ذلك مثال البارة مريم المصرية (+ ٤٢١م) التي كانت تشترك من يد القديس زوسيما الكاهن بجسد ودم المسيح، وكذلك كثير من المتوحدين المنقطعين في الصحاري والبراري المذكورين في السنكسار والذين كانوا يحملون معهم الأسرار المقدسة.

والقوانين الكنسية تشير إلى إقامة هذه الخدمة. فالقانون ٤٩ من مجمع اللاذقية المحلّي المنعقد بين ٣٤٣-٣٨١م ينص على: «لا يجوز تقديم الخبز في أيام الصوم الكبير باستثناء السبت ويوم الرب». ويشير القانون ٥٢ من المجمع

المسمى الخامس-السادس، أو ترللو (القبة)، المنعقد عام (٦٩٢م) إلى أنه «تقام خدمة القُدّسات السابق تقديسها في كل أيام الصوم الكبير ما عدا السبوت والآحاد ويوم عيد البشارة المقدس». والقانون الأوّل من قوانين القدّيس نيكيفوروس (٨٢٩-٧٥٨م) بطريرك القسطنينية يذكر إقامة هذه الخدمة، بالقول: «يصوم الرهبان يوم الأربعاء والجمعة من مرفع الجبن، وبعد تناول القُدُّسات السابق تقديسها يتغذون بالجبن أينما وُجِدوا».

وقد لوحظ، مع الوقت، سوء استعمال القدسات من قبل المؤمنين، فأخذت المناولة الشخصية تتحول تدريجًا إلى مشاركة في مناولة جماعية في خدمة قدّاس القُدُّسات السابق تقديسها. فمنع المجمع الخامس-السادس، أو ترللو، المؤمنين من أخذ القُدُّسات في آنية، بالقول: «فالمؤمن الّذي يرغب في المشاركة في القدسات يقترب من الكاهن ليناوله القدّسات وكفّاه مصلّبان... من يأخذ قسمًا من المناولة المقدسة معه في آنية خاصة تفرزه الكنيسة عن جماعة المؤمنين». وعندما سُئل القديس ثيودوروس السّتوديتي (+٨٢٦ م): «هل يستطيع الراهب أو الراهبة أن يُناول نفسه». أجاب: «ليس من الجائز أن تَمَسَّ القُدُّسات سوى أيدي الكهنة إلا في الحالات القصوى».

أما الأسباب التي من أجلها يقام القداس الإلهي في الصوم الكبير فقط أيام السبوت والآحاد، هي أن القداس الإلهي هو تعبير عن الوعي بأن سر الشكر (الافخارستيا) بمعناه لا يتوافق والصوم؛ لأن زمن الصّوم هو زمن حداد وتوبة. لذلك كما يُذكر في القانون ٤٩ مجمع لاودوكية: «لا تقام خدمة القدّاس الإلهي إلا يومي السّبت والأحد». وفي مجمع ترولّلو أُقرّ القانون ٥٢ التالي: «في كلّ أيام الصّوم ما عدا السبوت والأحاد وعيد البشارة، تقام خدمة القُدُّسات السابق تقديسها». أما في ما يخصّ السّبت والأحد فكلاهما، بحسب التقليد الأرثوذكسي، يوم إفخارستي، أي يقام فيه القدّاس الإلهي. لأن يوم السبت هو "Sabbath" الّذي ارتاح فيه الرب، ويوم الأحد هو يوم الرب الّذي يتجاوز الصوم كما يتجاوز الزمن؛ بكلمة أخرى هو يوم الملكوت ولا ينتمي إلى هذا الزمن. هذا مع الأخذ في الاعتبار أن في هذين اليومين يُكسر الصوم الانقطاعي بسر الشكر الذي هو تحقيق للانتظار. لكن في نفس الوقت بعد التناول يبقى الصوم قائمًا، بأكل الأطعمة النباتية، وهذا النوع من الصيام يستمر إلى يوم العيد. فعدم إقامة قداس عادي في أيام الصوم هو منذ البدء تعبير عن الوعي بأن سر الشكر (الإفخارستيا) بمعناه لا يتوافق والصوم.

وتُعطى المناولة في خدمة البروجِيازْمِني لأن جميع الصائمين بحاجة ماسة لمساعدة هذه "النّار الإلهية" وقوتها لمواجه أمام الشيطان وجميع قواته، لاجتياز فترة الصوم بمعونة النعمة الإلهية. ولأنها نبع لحياتنا الرّوحية والقوة الداعمة لها واكتمال كل جهودنا والغاية التي نصبو إليها والفرح العظيم لحياتنا المسيحية. وهي أيضًا، بالضرورة، بداية جهادنا الروحي ونبعه، والموهبة الإلهية التي تؤهلنا لأن نعرف ونشتاق ونتطلع إلى الشركة أكمل في النهار الذي لا "يعروه مساء" لملكوت الله}}.

ثامنًا: وجوب تقديم العبادة للسر

من حيث أن الخبز والنبيذ في السر المقدس هما جسد مخلصنا يسوع المسيح ودمه يجب أن تقدم لهما ذات الكرامة وذات العبادة والسجود الذي يُقدم للمخلص نفسه، كما يقول القديس باسيليوس الكبير في رسالته ٩٣ إلى لكيساريوس.

أقول: {{على أن يكون هذا خلال القداس الإلهي يبارك الكاهن المؤمنين بالقرابين المقدسة، ولكن ليس خارج هذه الفترة أبدًا. وتظل القرابين المقدسة، في معظم الأحيان، محفوظة في كل كنيسة أرثوذكسية في مكان خاص داخل الهيكل. ولكن لا تُعرض للعبادة، كما هو شائع في الكنيسة الكاثوليكية}}.

حقًا هكذا يجب؛ لأن الطبيعة البشرية في اتحادها مع أقنوم الرب الإلهي قد أُخذت بجملتها واتحدت مع الطبيعة الإلهية بلا انقسام وصارت ناسوتًا للإله الكلمة واحدًا معه، فكان الإله المتأنس بلاهوته وناسوته أقنومًا واحدًا غير منفصل معبودًا بطبيعتيه كلتاهما، ومسجودًا لطبيعته الإنسانية السجود الذي للإلهية عينه. وهذه الحقيقة التي هي نتيجة الإيمان بطبيعتين وبأقنوم واحد في يسوع المسيح سائد في الكنيسة الأرثوذكسية منذ القديم كما ذُكر في شهادات معلميها:

فالقديس يوحنا الذهبي الفم يقول: «هذا الجسد لما كان بعد في المزود خجل منه المجوس ورجال كفرة وبرابرة تركوا أوطانهم وبيوتهم وقطعوا طريقًا طويلة وأتوا بخوف وارتجاف كثير وسجدوا له. فلنقتدي إذًا بالبرارة على الأقل نحن أبناء السماوات؛ لأن أولئك مع أنهم رأوه في مزود وداخل كوخ لم يروا شيئًا مما تراه أنت الآن تقدموا برعدة شديدة، أما أنت فلست تراه في مزود بل على المذبح، ولست ترى إمرأة حاملة إياه بل كاهنًا منتصبًا وروحًا طائرًا على الموضوعات ونازلًا عليها بغزارة، لأنك لست تنظر الجسد وحده فقط على

بسيط الحال مثل أولئك، لكنك تعلم أيضًا قدرته وكل التدبير وليس خافيًا عليك شيء مما تُمم به لأنك متعلم جميع الأسرار بتدقيق» (عظة على ١كو ٢٤:٥).

والقديس أمبروسيوس يقول: «إنه بكلمة "موطىء" يعني الأرض، وبكلمة "أرض" يعني جسد المسيح الذي تسجد له اليوم في السر والذي عبده الرسل بشخص يسوع المسيح نفسه» (في شرحه المزمور ٩٦:٥).

والمغبوط أوغسطينوس يقول: «ما من أحد يشارك جسد يسوع المسيح ما لم يقدم له عبادة إلهية» (على المزمور ٩٨).

والقديس يوحنا الدمشقي يقول: «فالمسيح إذًا واحد إله تام وإنسان تام نسجد له مع الآب والروح، ونسجد لجسده الطاهر بسجدة واحدة ولا نقول أن الجسد لا يُسجد له، لأنه يُسجد له في أقنوم الكلمة الواحد الذي صار له أقنومًا. ولسنا بذلك نعبد المخلوق لأننا لا نسجد للجسد من حيث هو جسد بسيط، بل لأنه متحد باللاهوت وأن طبيعتيه كلتاهما انضمتا إلى شخص واحد وأقنوم واحد للإله الكلمة. فأخاف أن ألمس الجمرة بسبب النار المتضمَّنة فيها وأسجد لطبيعتي المسيح كلتيهما بسبب اللاهوت المتحد مع الجسد» (مائة مقالة ٣ و٤).

الباب الخامس

مَنْ له أن يُتمم السر، ومَنْ له حق الشركة

أولاً: حق تتميم سر الشكر

حق تتميم السر محصور، حسب تعليم الكنيسة الأرثوذكسية، بالأساقفة وحدهم لأنهم خلفاء الرسل، ومن سلطة الأساقفة منح هذا الحق للقسوس أيضًا. وقد أعطى مخلصنا يسوع المسيح هذا السلطان للرسل القديسيين وبهم لجميع خلفائهم عندما قال لهم في تسليمه لهم السر: "اِصْنَعُوا هذَا لِتِذْكَارِي" (لو ٢٢:١٩)، ومن أزمنه الرسل أخذ الأساقفة والقسوس هذا السلطان في الكنيسة.

ويشهد بذلك كثيرون من أباء الكنيسة القديسين:

فالقديس ديونيسيوس الأريوباغي (+ ٩٦م) يقول: «رئيس الكهنة... يقدس الأسرار الإلهية» (في رئاسة الكهنوت الكنائسية ٣).

والقديس يوستينوس الشهيد (+ ١٦٥) يقول: «وإذ... يشكر المتقدم» (إحتجاج ١).

والعلامة ترتليانوس (+ ٢٢٠م) يقول: «إننا لا نتناول من يدي أحد سوى يدي المتقدم» (في الإكليل فصل ٣).

وغيرهم من أباء الكنيسة القديسين مثل القديس باسيليوس الكبير، القديس يوحنا الذهبي الفم، القديس إيلايوس، القديس أبيفانيوس، والقديس إيرونيموس وآخرين.

كما تشهد أيضًا المجامع المسكونية والمكانية:

فالمجمع المسكوني الأول النيقاوي (٣٢٥م) يقول: «لقد بلغ المجمع الكبير المقدس أن الشمامسة في بعض الأماكن يُناولون الإفخارستيا للقسوس وهذا لم يُسلمه القانون ولا العادة، أعني أن يناول مَنْ الذين لا سلطان لهم أن يُقدموا جسد المسيح للذين يقدمونه. وقد عُرف أيضًا أن بعض الشمامسة يلمسون الإفخارستيا قبل الأساقفة أيضًا. فلتُمنع هذه جميعها وليلبث الشمامسة ضمن حقوقهم، وليعلموا أنهم خدام للأسقف وأقل مرتبة من القسوس، وليُتناول السر بحسب الترتيب بعد القسوس ولينالوهم الأسقف أو القس» (القانون ١٨).

ومجمع اللاذقية (٣٤٧ - ٣٨١م) يقول: «إنه لا يجوز أن يقدم الأساقفة أو القسوس التقدمة في البيوت» (القانون ٥٨).

وغيرهم من المجامع مثل مجمع أنقرة (القانون ١) ومجمع قيسارية الجديدة (القانون ٩) ومجمع قرطجانة (القانون ٤).

لم يُعط هذا السلطان للشمامسة لأن واجباتهم كانت أن يحضروا ويخدموا الأساقفة والقسوس فقط في تتميم سر الشكر (كما يذكر أمبروسيوس في واجبات الخادم)، ولكن كان مسموحًا لهم بعد تتميم السر أن يناولوا المؤمنين جسد يسوع المسيح ويقدموا الكأس للإشتراك (أوامر الرسل كتاب ٤).

وأما الشعب فممنوع بصرامة لا عن تتميم السر فقط بل أيضًا عن خدمته الخدمة البسيطة عند الأساقفة والقسوس والشمامسة (مجمع ترولو ٦٩٢م القانون ٥٨).

ثانيًا: مَن لهم حق التقدُّم للتناول

١- جميع المسيحيين المُستقيمي الرأي يمكنهم أن يتقدموا إلى مائدة الرب ويشتركوا بجسده ودمه. وهؤلاء هم الذين دخلوا الكنيسة من أبواب المعمودية وتُبَنوا لها وصاروا ورثة جميع الخيرات التي منحها الرب للكنيسة. فالقديس بولس الرسول يقول: "فَإِنَّنَا نَحْنُ الْكَثِيرِينَ خُبْزٌ وَاحِدٌ، جَسَدٌ وَاحِدٌ، لأَنَّنَا جَمِيعَنَا نَشْتَرِكُ فِي الْخُبْزِ الْوَاحِدِ" (١كو ١٠:١٧). والقديس يوستينوس الشهيد يقول: «وهذا الغذاء يُدعى عندنا شكرًا، ولا يُسمح لأحد أن يشترك به إلا المؤمنين بأن ما نعتقده حقيقي وهو الذي استحم بحميم غفران الخطايا وإعادة الولادة كما سلَّم المسيح» (إحتجاج ١).

٢- حق الأطفال في التناول. بالنظر إلى المؤمنين، إن الاشتراك بالأسرار الطاهرة مسموح بحسب القوانين الكنائسية ليس للمسنين فقط بل أيضًا للأولاد والأطفال الصغار بناء على إيمان مقدميهم وعلى تقديس نفوسهم وأجسادهم الذي نالوه بالمعمودية المقدسة والتبني الذي حصلوا عليه بنعمة المخلص. وهذا كان معمول به في الكنيسة الجامعة كلها في الشرق والغرب، وقد شهد بهذا كتاب أوامر الرسل (كتاب ٨ فصل ٢١)، ديونيسيوس الأريوباغي (في رئاسة الكهنوت الكنائسية ٧:١١)، كبريانوس (في الساقطين ٣:٢٥)، باسيليوس الكبير (في مكتبة فوتيوس سجل ١٧)، إفغاريوس (في تاريخ الكنيسة ٤:٢٦)، ومعلمون آخرون في الكنيسة.

وهذه القاعدة المحفوظة في الكنيسة الأرثوذكسية، والمرفوضة من الكنيسة الرومانية [المجمع التريدنتيني (ترنت) ١٥٤٥-١٥٦٣م جلسة ٢١ القانون ٤]، قد شهد بها في الغرب:

فالبابا إينوشنسيوس الأول (+ ٤١٧) بقوله: «أمر يتجاوز الواجب أن يُكرَّم الأطفال بقرابين الحياة الأبدية قبل أن ينالوا نعمة المعمودية... لأنهم إن لم يمضغوا دمه لا تكون لهم حياة فيهم» (رسالة ٤٣).

والمغبوط أوغسطينس (+ ٤٣٠م) بقوله: «وحقًا من يتجاسر ويقول أن هذا الرأي لا يخص الأطفال وأنهم يستطيعون أن تكون لهم حياة فيهم من دون مشاركة الجسد والدم؟» (في الساقطين ١:٢٠).

وقد حُفظت هذه القاعدة في كنيسة روما إلى القرن الثاني عشر. وفي القرن التاسع سَنَت كنيسة روما القانون التالي: «ينبغي أن يُعتنى بالأطفال حتى لا يذوقوا غذاء ما أو يرضعوا بعد المعمودية قبل أن يشتركوا بسر جسد المسيح إلا عند الضرورة الأخيرة».

ثالثًا: الاستعداد للشركة الإلهية

مع كون الكنيسة تدعو جميع أبنائها إلى مائدة الرب فهي لعظمة السر وقداسته لا تسمح بشركة الأسرار المقدسة إلا للذين هيأُوا أنفسهم لتناوله بدقة وفقًا لوصية الرسول بولس: "لِيَمْتَحِنِ الإِنْسَانُ نَفْسَهُ، وَهكَذَا يَأْكُلُ مِنَ الْخُبْزِ وَيَشْرَبُ مِنَ الْكَأْسِ. لأَنَّ الَّذِي يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ بِدُونِ اسْتِحْقَاق يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ دَيْنُونَةً لِنَفْسِهِ، غَيْرَ مُمَيِّزٍ جَسَدَ الرَّبِّ... لأَنَّنَا لَوْ كُنَّا حَكَمْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا لَمَا حُكِمَ عَلَيْنَا" (١كو ١١:٢٨-٣١).

أقول: {{فعلى كل مسيحي حقيقي إذًا أن يختبر نفسه بتدقيق ويتطهر من خطاياه كلها بسر التوبة والاعتراف، وبالصوم إن كان الصوم الطقسي المحدد من الكنيسة ومجامعها المقدسة المرتبط بالأعياد الكنائسية والصوم الإسبوعي (يومي الأربعاء والجمعة)، وبالصلاة طبقًا لوصايا الكنيسة لينال جسد الرب ودمه لحياة لا لدينونة. كما علية الصوم قبل المناولة بالامتناع عن الأكل أو الشرب منذ منتصف الليل، كما كان يُمارس في الكنيسة على زمن الرسل الأولين، فبولس الرسول في مساء (غروب) يوم الأحد (الغروب بحسب التقويم العبري هو بداية اليوم الجديد، ويُحدد على أساس الشمس، أي ما بين الساعة الثانية والساعة الخامسة من بعد الظهر) اجتمع مع التلاميذ وأطال الكلام إلى منتصف الليل، وبعد منتصف الليل كسر الخبز وأكل وتكلم حتى الفجر، "فِي أَوَّلِ الأُسْبُوعِ إِذْ كَانَ التَّلاَمِيذُ مُجْتَمِعِينَ لِيَكْسِرُوا خُبْزًا، خَاطَبَهُمْ بُولُسُ وَهُوَ مُزْمِعٌ أَنْ يَمْضِيَ فِي الْغَدِ، وَأَطَالَ الْكَلاَمَ إِلَى نِصْفِ اللَّيْلِ. وَكَانَتْ مَصَابِيحُ كَثِيرَةٌ فِي الْعِلِّيَّةِ الَّتِي كَانُوا مُجْتَمِعِينَ فِيهَا. وَكَانَ شَابٌّ اسْمُهُ أَفْتِيخُوسُ جَالِسًا فِي الطَّاقَةِ

مُتَثَقِّلاً بِنَوْمٍ عَمِيق. وَإِذْ كَانَ بُولُسُ يُخَاطِبُ خِطَابًا طَوِيلاً، غَلَبَ عَلَيْهِ النَّوْمُ فَسَقَطَ مِنَ الطَّبَقَةِ الثَّالِثَةِ إِلَى أَسْفَلُ، وَحُمِلَ مَيِّتًا. فَنَزَلَ بُولُسُ وَوَقَعَ عَلَيْهِ وَاعْتَنَقَهُ قَائِلاً: لاَ تَضْطَرِبُوا، لأَنَّ نَفْسَهُ فِيهِ. ثُمَّ صَعِدَ وَكَسَّرَ خُبْزًا وَأَكَلَ وَتَكَلَّمَ كَثِيرًا إِلَى الْفَجْرِ. وَهكَذَا خَرَجَ. وَأَتَوْا بِالْفَتَى حَيًّا، وَتَعَزَّوْا تَعْزِيَةً لَيْسَتْ بِقَلِيلَةٍ" (أع ٢٠:٧و٨). وكذلك كما يُوصي خلفائهم، مثل جينياديوس الأول أسقف القسطنطينية (+ ٤٧١م) الذي يقول: «أولئك الذين يدعون الإمبراطور ينظفون بيوتهم. كذلك أنتم الذين ترغبون في استقبال الله في بيوت أجسادكم، من أجل خلاص حياتكم، عليكم أن تطهروا تلك الأجساد بالصوم» (الفصول المئة). أما في حال المرض أو الضرورة القصوى، بوسع الأب الروحي أن يمنح إعفاء من الصوم قبل المناولة}}.

رابعًا: الممنوعون من الشركة

قد مُنع منذ القديم عن الشركة الإلهية جميع الذين لم يدخلوا الكنيسة من باب المعمودية ولم يصيروا أبناء لها، كالوثنيين واليهود وسائر الناس غير المسيحيين والموعوظين، وكذلك الذين دخلوا الكنيسة لكنهم خرجوا منها بإنكارهم الإيمان المسيحي أو باتخاذهم بدعة أو إنشقاقًا، والذين أيضًا منعتهم الكنيسة عن الشركة المقدسة بسبب عدم توبتهم عن خطايا ارتكبوها أو جريمة ثقيلة. وهذا الأمر يُتأكد منه من قوانين المجامع والأباء، وكذلك من كتب خدمة القداديس الإلهية التي يُتعلم منها أن جميع الخدم القديمة هي مؤلفة من قسمين، فضلًا عن القسم المتعلق بالذبيحة، اللذان هما:

أولاً: قداس الموعوظين، الذي يُسمح بحضوره إلى جانب المؤمنين الموعوظين والذين تحت قصاص الامتناع أو التوبة العلنية. كما يحضره المنشقون والكفرة إن وجدوا للاستماع للقراءات الكتابية وتعليم كلام الله (أوامر الرسل ٧:٧).

ثانيًا: قداس المؤمنين، الذي يُسمح بحضوره فقط المسيحيون المستقيمو الرأي، والذي فيه يُتمم ويُناول سر الشكر الإلهي.

الباب السادس

الفصل الأول

ضرورة تناول السر تحت الشكلين

إن المناولة من جسد الرب ودمه تحت شكل الخبز وشكل النبيذ ضروري مطلقًا وواجب جوهري لجميع المؤمنين بيسوع المسيح. والبراهين الصريحة على ذلك فهي:

١- وعد الرب بالسر

أقوال الرب يسوع نفسه الذي قال حين وعده بسر الشكر: "الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنْ لَمْ تَأْكُلُوا جِسْمَ ابْنِ الإِنْسَانِ وَتَشْرَبُوا دَمَهُ، فَلَيْسَ لَكُمْ حَيَاةٌ فِيكُمْ. مَنْ يَأْكُلُ جِسْمِي وَيَشْرَبُ دَمِي فَلَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ، وَأَنَا أُقِيمُهُ فِي الْيَوْمِ الأَخِيرِ" (يو ٦:٥٣ و٥٤). ويعني ذلك أنه كما أن على كل إنسان أن يولد من الماء والروح بنواله سر المعمودية ليدخل مُلك نعمة يسوع المسيح، كما قال هو نفسه لنيقوديموس: "الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يُولَدُ مِنَ الْمَاءِ وَالرُّوحِ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَدْخُلَ مَلَكُوتَ اللهِ" (يو ٣:٥)، هكذا على كل إنسان كي يتقوى وينمو في حياة النعمة ويُكلل بالحياة الأبدية محتاج إلى أن يغتذي الغذاء السماوي والقوت المحيي في سر الشكر. وهذا الوعد للمخلص (يو ٦:٥٣ و٥٤) لم يكن موجه لتلاميذه بل لليهود، وبالتالي لكل إنسان، بأن كل من يؤمن به ويعمل بما أوصى بأن يغتذي جسمه ودمه الإلهيين ينال الحياة الأبدية، ذلك كقوله لتلاميذه أيضًا: "اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: مَنْ يُؤْمِنُ بِي فَالأَعْمَالُ الَّتِي أَنَا أَعْمَلُهَا يَعْمَلُهَا هُوَ أَيْضًا، وَيَعْمَلُ أَعْظَمَ مِنْهَا، لأَنِّي مَاضٍ إِلَى أَبِي" (يو ١٢:١٢). فوصية الرب لتلاميذه حين تأسيسه سر الشكر: "خُذُوا كُلُوا. هذَا هُوَ جَسَدِي... اشْرَبُوا مِنْهَا كُلُّكُمْ، لأَنَّ هذَا هُوَ دَمِي" (مت ٢٦:٢٦- ٢٨)، لم تكن مختصة بالرسل وحدهم بل تشمل جميع المؤمنين بلا استثناء.

وإذا وُلد إنسان قاصرًا أو راشدًا من الماء والروح القدس ولم يحصل على الاشتراك بجسد الرب ودمه بسبب موت سريع أو غير منتظر، فيمكنه في الحالتين أن يستحق دخول ملكوت السماوات نظرًا لنقاوته وبرارته بالمعمودية، كما ورد في الأفخولوجي في جناز الأطفال: «أيها الرب يسوع المسيح إلهنا، يا

من وعد المولودين من الماء والروح المنتقلين إليه بسيرة نقية أن يعطيهم ملكوت السماوي».

٢- شهادة الرسل

القديس بولس الرسول يحدث المؤمنين بقوله: "لأَنَّنِي تَسَلَّمْتُ مِنَ الرَّبِّ مَا سَلَّمْتُكُمْ أَيْضًا إِنَّ الرَّبَّ يَسُوعَ فِي اللَّيْلَةِ الَّتِي أُسْلِمَ فِيهَا، أَخَذَ خُبْزًا وَشَكَرَ فَكَسَّرَ، وَقَالَ: خُذُوا كُلُوا هذَا هُوَ جَسَدِي الْمَكْسُورُ لأَجْلِكُمُ. اصْنَعُوا هذَا لِتِذْكَارِي. كَذلِكَ الْكَأْسَ أَيْضًا بَعْدَمَا تَعَشَّوْا، قَائِلاً: هذِهِ الْكَأْسُ هِيَ الْعَهْدُ الْجَدِيدُ بِدَمِي. اصْنَعُوا هذَا كُلَّمَا شَرِبْتُمْ لِتِذْكَارِي. فَإِنَّكُمْ كُلَّمَا أَكَلْتُمْ هذَا الْخُبْزَ وَشَرِبْتُمْ هذِهِ الْكَأْسَ، تُخْبِرُونَ بِمَوْتِ الرَّبِّ إِلَى أَنْ يَجِيءَ" (١كو ١١:٢٣-٢٦). ويُكمل بقوله لهم: "إِذًا أَيُّ مَنْ أَكَلَ هذَا الْخُبْزَ، أَوْ شَرِبَ كَأْسَ الرَّبِّ، بِدُونِ اسْتِحْقَاق، يَكُونُ مُجْرِمًا فِي جَسَدِ الرَّبِّ وَدَمِهِ. وَلكِنْ لِيَمْتَحِنِ الإِنْسَانُ نَفْسَهُ، وَهكَذَا يَأْكُلُ مِنَ الْخُبْزِ وَيَشْرَبُ مِنَ الْكَأْسِ" (١كو ١١:٢٧ و٢٨). إن قول بولس الرسول: "أَيُّ مَنْ أَكَلَ... أَوْ شَرِبَ"، يعني أي "إنسان"، يشير إلى كل مسيحي على الإطلاق؛ لأن قوله هذا موجهة إلى جماعة كورنثوس. فجميع المؤمنين بلا استثناء سواء كانوا إكليريكيين أو علمانيين محتاجون ولهم الحق أن يشتركوا بالأسرار الطاهرة تحت الشكلين، أي شكل الخبز وشكل النبيذ.

من هنا يُستنتج أن الوصية التي أعطيت للرسل في شركة جسد المسيح ودمه لم تكن خاصة للرسل وحدهم بل هي عامة لجميع المؤمنين.

٣- عمل الرسل القديسين والمسيحيين الأوائل

كان الرسل والمسيحيون الأولون يتممون وصية الرب بكل ورع وتقوى، وقد شهد كتاب أعمال الرسل أن المؤمنين "كَانُوا يُواظِبُونَ عَلَى تَعْلِيمِ الرُّسُلِ، وَالشَّرِكَةِ، وَكَسْرِ الْخُبْزِ، وَالصَّلَوَاتِ" (أع ٢:٤٢).

٤- تعليم الكنيسة الأرثوذكسية وعملها

إن الكنيسة الأرثوذكسية تأمر أبنائها أن يتقدموا بتواتر إلى مائدة الرب، على ألا يمر ثلاثة آحاد دون تناول. وأن يُنقوا ضمائرهم بواسطة سر الاعتراف والتوبة، قبل أن يشتركوا بسر الشكر المقدس بالتناول من الجسد والدم اللإلهيين.

٥- وجوب تناول المؤمنين من الجسد والدم الإلهيين

إن حصر الكنيسة اللاتينة الكاثوليكية التناول من جسد الرب ودمه الإلهيين للإكليروس ومناولة الشعب المؤمن من الجسد المقدس فقط وحرمه من شركة الكأس، تحت علة أن الشعب المؤمن بتناوله من الخبز وحده يكون قد تناول الخمر أيضًا التي ضمن الخبز. بحجة أنه حيث يكون جسد المسيح فهناك دمه أيضًا (بيرون مقدمات اللاهوت، في الشكر قسم ١ فصل ٣ قضية ٤). هذا القول لا محل له من الصحة؛ لأن الرب عندما أعطى سر الشكر لم يعطه تحت شكل واحد فقط، أي تحت شكل الخبز وحده، بل أعطاه تحت نوعين فأعطى جسده تحت شكل الخبز ودمه تحت شكل النبيذ ليأكل المؤمنون جسده المقدس ويشربوا دمه المقدس. كما يشهد عمل الكنيسة في القرون القديمة التي تبعت بلا ريب تقليد الرسل أنفسم، كما يشهد كل من:

القديس يوستينوس الشهيد (+ ١٦٥م) الذي يقول: «وبعد أن يُتمم الخادم الشكر ويقول الشعب "آمين" يناول الشمامسة جميع الحاضرين من الخبز والخمر والماء ويحفظون جزءًا من التقدمة للغائبين» (إحتجاج ١).

القديس الشهيد كبريانوس أسقف قرطاجنة (+ ٢٨٥م) الذي يقول: «إننا نحثهم ونحرضهم على الجهاد ولا نتركهم بلا سلاح بل نحصنهم بالسلاح الكامل وهو جسد ودم المسيح... لأننا كيف نُعلِّم أو ندعو إلى الاعتراف باسمه وأن يهرقوا دمهم إذا كنا لا نمنح دم المسيح للمجاهدين عنه؟» (رسالة ٥٤).

وغيرهم من أباء الكنيسة القديسين مثل القديس إيريناوس (+ ٢٠٢م) (ضد الهراطقة ٤)، والعلامة ترتليانوس (+ ٢٢٠م) (في قيامة الأموات فصل ٨)، القديس كيرلس الأورشليمي (+ ٣٨٨م) (في الأسرار ٤)، القديس يوحنا الذهبي الفم (+ ٤٠٧م) (مقاله ٨٣ على متى)، القديس أمبروسيوس (+ ٣٩٧م) (في الأسرار ٨).

كما يشهد بعض باباوات روما أنفسم بأن اشتراك بعض المسيحيين بجسد المسيح دون دمه يُحسب إهانة عظيمة للقرابين المقدسة إذ يعتبر انقسامًا في السر الواحد نفسه. من هؤلاء:

البابا لاون الكبير (+٤٦١م) يقول في إحدى عظاته في الصوم الكبير قال في هؤلاء: «إنهم يتناولون بأفواه غير مستحقة جسد يسوع المسيح، لكنهم يبتعدون كل البعد عن دم فادينا. فنذكر ذلك على عِلم من قدسكم لكي يصير هؤلاء معروفين عندنا ويُكشف رياؤهم الثالم الإلهيات ويُمنعوا عن الاشتراك بالقدسات» (خطاب ٤).

والبابا جلاسيوس (+ ٤٩٦م) كتب: «قد اتضح لنا أن بعض المسيحيين يتناولون جسد المسيح الإلهي لكنهم يبتعدون عن كأس الدم الإلهي، ولا نعلم لأي سبب يعملون هذا. فلنأمر إذًا أنه يجب على الجميع أن يشتركوا بالسر المقدس كاملًا وإلا فليكن الذين مثل أولئك غير مقبولين فيه؛ لأن قسمة السر الواحد غير ممكنة من دون حصول إهانة عظيمة للموضوعات المقدسة والأشياء الشريفة».

الفصل الثاني

ما يناله المتناولين من سر الشكر

١- الذين يتناولون باستحقاق

هؤلاء ينالون ثمارًا خلاصية، لأن:

أولاً: المناولة المقدسة تربط المتناولين باستحقاق مع الرب رباطًا وطيدًا، كما قال مخلصنا في وعده لليهود: "مَنْ يَأْكُلْ جِسْمِي وَيَشْرَبْ دَمِي يَثْبُتْ فِيَّ وَأَنَا فِيهِ" (يو ٦:٥٦). فبالتناول إذًا من جسد الرب ودمه يصير المتناولون، كما يقول آباء الكنيسة: «أعضاء جسده وحاملي المسيح ومشاركي طبيعته الإلهية» (كيرلس الأورشليمي في الأسرار ٤، ويوحنا الدمشقي مائة مقالة ٤، ومكسيموس اعتراف الأسرار ٢١).

ثانيًا: الشركة الإلهية تُغذي أجساد ونفوس المتناولين، وتساعدهم على الثبات والتقدم والنجاح والكمال في الحياة الروحية. وذلك كما قال المخلص في وعده لليهود: "لأَنَّ جِسْمِي مَأْكَلٌ حَقٌّ وَدَمِي مَشْرَبٌ حَقٌّ" (يو ٦:٥٥)، وبعد ذلك قال لهم: "كَمَا أَرْسَلَنِي الآبُ الْحَيُّ، وَأَنَا حَيٌّ بِالآبِ، فَمَنْ يَأْكُلْنِي فَهُوَ يَحْيَا بِي" (يو ٦:٥٧). فإذا كان القوت العادي يغذي الجسد ويقويه طبيعًا ويعيد إليه قواه المنحلة ويمنحه حيويه ويساعده على النمو والحياة، فأحرى أن تُرجى هذه الأثمار الخلاصية للأجساد وخصوصًا للنفوس من الغذاء الإلهي السماوي للمتناولين منه باستحقاق في سر الشكر. وهذا الغذاء العجيب يجعل مَنْ يتناولون منه بنوع غير منظور متحدين مع المسيح الذي هو ينبوع الحياة والنعمة، والمُعطي كل خير ماديّ وروحيّ لنا منه حياة وتقوى، كما يقول الرسول بطرس: "كَمَا أَنَّ قُدْرَتَهُ الإِلهِيَّةَ قَدْ وَهَبَتْ لَنَا كُلَّ مَا هُوَ لِلْحَيَاةِ وَالتَّقْوَى، بِمَعْرِفَةِ الَّذِي دَعَانَا بِالْمَجْدِ وَالْفَضِيلَةِ، اللَّذَيْنِ بِهِمَا قَدْ وَهَبَ لَنَا الْمَوَاعِيدَ الْعُظْمَى وَالثَّمِينَةَ، لِكَيْ تَصِيرُوا بِهَا شُرَكَاءَ الطَّبِيعَةِ الإِلهِيَّةِ" (٢بط ١:٣ و٤).

وأباء الكنيسة القديسون بنوع خاص يُعلِّمون أن سر الشكر لكونه غذاءً خلاصيًا فهو يُقوي الجسد ويُغذيه (يوحنا الذهبي الفم مقالة ٤، يوحنا الدمشقي مائة مقالة ٤)، ويُغذي النفس أيضًا (يوحنا الذهبي الفم مقالة ٤٥، وكيرلس الاسكندري كتاب ١٢)، ويقويها ويحييها (أمبروسيوس على مزمور ٥٤، وكيرلس الاسكندري على يوحنا ٤)، ويشفي الضعف الأدبي منقيًا النفس من الخطايا (مجمع ترولو القانون ٤٨)، ويقدس النفس والجسد (كيرلس

الأورشليمس في الأسرار ٤، ومجمع ترولو القانون ٢٣ و١٠١)، ويجعلنا غير متزعزعين وغير مغلوبين في جهادتنا في سبيل التقوى ضد أعداء خلاصنا (كبريانوس رسالة ٥٤، ويوحنا الذهبي الفم مقالة ٢٤).

ثالثًا: الشركة الإلهية هي بمثابة عربون لقيامة المؤمنين الحقيقيين المستقبلية وللغبطة الأبدية، كما قال مخلصنا بوعده لليهود: "إِنْ أَكَلَ أَحَدٌ مِنْ هذَا الْخُبْزِ يَحْيَا إِلَى الأَبَدِ. وَالْخُبْزُ الَّذِي أَنَا أُعْطِي هُوَ جِسْمِي الَّذِي أَبْذِلُهُ مِنْ أَجْلِ حَيَاةِ الْعَالَمِ" (يو ٦:٥١)، وكذلك قوله لهم: "مَنْ يَأْكُلُ جِسْمِي وَيَشْرَبُ دَمِي فَلَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ، وَأَنَا أُقِيمُهُ فِي الْيَوْمِ الأَخِيرِ" (يو ٦:٥٦).

وقد قال الآباء القديسون أيضًا في سر الشكر، أنه دواء لعدم الموت وحرز ضد الموت وتثبيت للحياة الأبدية بيسوع المسيح (إيريناوس ضد الهرطقات ٤، وغريغوريوس النيسيسي في تعليمه ٣٧)، وأن أجسادنا بعد اشتراكها بالشكر الإلهي لا تبقى فاسدة بل يكون لها رجاء القيامة للحياة الأبدية (أمبروسيوس كتاب ١٠). وقالوا أيضًا أن المقصد الأصلي من الاشتراك بالأسرار الطاهرة هو الاشتراك بالحياة الأبدية (أمبروسيوس كتاب ١٠).

٢- الذين يتناولون بدون باستحقاق

إن الذين يتجاسرون ويتقدمون إلى مائدة الرب السماوية وتناولون جسد الرب ودمه بدون استحقاق وعدم استعداد لائق ينالون جزاءً ثقيلًا ودينونة لأنفسهم، كما يقول بولس الرسول: "إِذًا أَيُّ مَنْ أَكَلَ هذَا الْخُبْزَ، أَوْ شَرِبَ كَأْسَ الرَّبِّ، بِدُونِ اسْتِحْقَاق، يَكُونُ مُجْرِمًا فِي جَسَدِ الرَّبِّ وَدَمِهِ... لأَنَّ الَّذِي يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ بِدُونِ اسْتِحْقَاق يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ دَيْنُونَةً لِنَفْسِهِ، غَيْرَ مُمَيِّزٍ جَسَدَ الرَّبِّ" (١كو ١١:٢٧-٢٩).

هذا التعليم حفظته الكنيسة الأرثوذكسية، وهذا هو السبب الذي يجعلها تطلب من أبنائها الاستعداد اللائق بالتوبة والاعتراف لكي يتناولوا باستحقاق جسد يسوع المسيح ودمه، وأن تمنع عن الشركة غير المستحقين.

أقول: {{إن التساؤل بخصوص الثبات في يسوع المسيح بالتناول من جسده ودمه الإلهيين، بوعد الرب: "مَنْ يَأْكُلْ جِسْمِي وَيَشْرَبْ دَمِي يَثْبُتْ فِيَّ وَأَنَا فِيهِ" (يو ٦:٥٦)، لمَنْ يتناولون بدون إستحقاق من المؤمنين. هذا التساؤل يقود إلى إشكالية إستحقاق الذين يتناولون من القائمين على السر أيضًا، الأسقف والكاهن. كما يقود إلى إشكالية أخرى أكبر، وهي إستحقاق الأسقف والكاهن لإتمام السر، وحقيقة الأسرار التي تُجرى على أيديهما.

إن الثبات في يسوع المسيح بالتناول من جسده ودمه الإلهيين ليس مطلقًا لكل مَن يشترك بسر الشكر، بل هناك شرط وهو إستحقاق المشترك بجسد الرب ودمه كما أوضح بولس الرسول بقوله: "إِذًا أَيُّ مَنْ أَكَلَ هذَا الْخُبْزَ، أَوْ شَرِبَ كَأْسَ الرَّبِّ، بِدُونِ اسْتِحْقَاق، يَكُونُ مُجْرِمًا فِي جَسَدِ الرَّبِّ وَدَمِهِ... لأَنَّ الَّذِي يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ بِدُونِ اسْتِحْقَاق يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ دَيْنُونَةً لِنَفْسِهِ، غَيْرَ مُمَيِّزٍ جَسَدَ الرَّبِّ" (١كو ١١:٢٧-٢٩).

أما إشكالية إستحقاق الذين يتناولون من القائمين على السر (الأسقف والكاهن) وإستحقاقهم لإتمام السر وحقيقة الأسرار التي تُجرى على أيديهما، لأنهم بشر معرضون للخطيئة. هذه الإشكالية أثيرت في القرون الأولى من الهراطقة المونتانيين الذين كانوا يدعون في تشددهم إلى الطهارة الكاملة، وقد وأدانتهم وأفكارهم الكنيسة التي حددت في مجامعها أنه لو سقط رؤساء كهنة أنفسهم في أثقل الخطايا وتقدموا إلى التوبة فبعد أن يتمموا القوانين اللازمة يُعتبرون بلا ريب مستحقين الصفح (كتاب القوانين في كلمة "التوبة").

فالكنيسة بتمامها، كما يراها القديس أغناطيوس الأنطاكي، حاضرة في اجتماع الخدمة الإلهية: يمثّل الأسقف الله ذاته كالسيد في العشاء السري ويمثل الكهنة الرسل. قد يبدو لنا غريبًا أن يجلس في "مكان الله" رجل خاطىء... ولكنّا نعلم أن الكنيسة كلها هي جسد المسيح وأننا مدعوون كلنا لإظهار المسيح أمام العالم: هكذا يظهر الأسقف - أو الكاهن الذي يقيم الخدمة - صورة المسيح لجماعة المسيحيين. وهنا لا يزال يكمن بالذات سر تجسد الله الحقيقي الذي يظهر وحدة الله والناس... ودرجة الأسقف هي بالضبط ودون شك "رتبة" وهي ليست تحولاً سحريًا من الإنسان الى الإله. وقد يجد الأسقف نفسه غير مستحق لمواهب النعمة التي ينالها لهذه الرتبة الشريفة، ولكن بالرغم من ذلك يبقى مفعول النعمة الإلهية والرتبة الشريفة... ويكمن سر الكنيسة في أن يتحد أناس خطأة فيما بينهم ليس بحسب العالم ولكن "في المسيح" مظهرين هكذا ملكوت الله ووحدة الثالوث الأقدس على الأرض. لهذا يقول القديس أغناطيوس الأنطاكي: «تحلّوا بصفات الله واحترموا بعضكم بعضًا ولا ينظرنّ أحدكم إلى قريبه بحسب الجسد ولكن أحبّوا دائمًا بعضكم بعضاً بالمسيح يسوع. ولا يكوننّ فيكم ما يفصم وحدتكم ولكن حافظوا على اتحادكم بالأسقف وبالرؤساء رمزًا وبرهانًا لعدم الفساد» (الرسالة إلى أهل مغنيسية ٦،٢). وهكذا بحسب القديس أغناطيوس فإن الرتبة الأسقفية لا تفترض عصمة الأسقف ولا تنفي عنه الضعفات والنقائص البشرية.

وكنيستنا الأرثوذكسية لا تنكر "حقيقة" الأسرار التي تُجرى على يد أي إكليريكي (أسقف كان أم كاهن) سواء كان صالحًا أم طالحًا؛ لأن المسيح هو مُتتم الأسرار، كما يُتلى في قداس الإلهي للقديس باسيليوس الكبير وللقديس يوحنا الذهبي الفم بقول القائم على إتمام السر: «لأنك أنت المقرِّب والمقرَّب والقابل والموزع، أيها المسيح إلهنا». لكنها في الوقت عينه تَعلم حق العلم الدرجة الكبيرة التي تعتمد فيها الحياة الكنسية على استحقاق أو عدم استحقاق من أُوْكِلوا وأُوْدِعوا "تدبير الأسرار الإلهية". وإن كنا نؤمن حقًا بأنه "ليس أحد مستحق" أن يُتمم هذه الخدمة، وبأنها عطية من النعمة الإلهية، فعلينا أن نؤمن أيضًا أننا أدنى من أن نتقبل هذه العطية بتواضع وإنسحاق وشعور بعدم الإستحقاق. ذلك كما يتلو المتقدم في الخدمة في القداس الإلهي من أجل نفسه ومن أجل المشتركين معه من الكهنة، قائلاً: «لأجل هذا أيها السيد الكلي قدسه نجسر نحن أيضًا عبيدك الخطأة الغير المستحقين، الذين أُهلنا أن نخدم مذبحك المقدس لا بالنظر إلى بِرنا (لأننا لم نصنع شيئًا صالحًا على الأرض) بل بمجرد مراحمك ورأفتك التي أفضتها علينا بسخاء، وندنوا من مذبحك المقدس». كما أنه في القداس الإلهي يتلو خادم السر الصلاة التالية: «ليس أحد من المرتبطين بالشهوات واللذات الجسدانية مستحقاً أن يتقدم إليك أو يدنو منك أو يخدمك يا ملك المجد، لأن الخدمة لك عظيمة ومرهوبة... فانظر إليّ أنا عبدك الخاطئ والبطال، وطهر نفسي وقلبي من الضمير الرديء، واجعلني كفؤا بقوة روحك القدوس، إذ أنا لابس نعمة الكهنوت أن أقف لدى مائدتك هذه المقدسة وأخدم جسدك (σου Σώμά) المقدس الطاهر ودمك الكريم... أهلني لأن تُقَدَّم هذه القرابين على يديّ أنا عبدك الخاطىء الغير المستحق».

فالأسقف أو الكاهن باعترافه أن كهنوته الذي حلت عليه النعمة هو كهنوت المسيح وباستعداده لخدمة جسد المسيح "سريًا"، أي بإعلان مطابقة قرباننا لذبيحة المسيح، لا يبرهن عن عدم إنفصاله عن الجماعة فحسب بل على النقيض من ذلك، يذهب إلى حد تأكيد وحدة حالهُ معها (الجماعة)، كما هي الحال بالنسبة إلى وحدة حال الرأس والجسد. كما أن هذه الصلاة التي يتلوها خادم السر من أجل نفسه لا تعني أنه وحده يقدم هذه القرابين، بل على العكس هي مطابَقة لكهنوت الكنيسة بكهنوت المسيح، الكاهن الأوحد في العهد الجديد، الذي قدس الكنيسة بقربانه هو والذي أعطاها أن تشاطره كهنوته وذبيحته، ذلك كما يتلو المتقدم قائلاً: «نحن أيضًا عبيدك الخطأة الغير المستحقين، الذين أُهلنا أن نخدم مذبحك المقدس». لذا من الضروري أن يصلي الأسقف أو الكاهن من أجل نفسه

بتلاوته مع الجماعة، الكنيسة، صلاة الإشتراك (قبل التناول)، بقوله: «لقد وقفت تجاه أبواب هيكلك ومن الأفكار الرديئة لم أبتعد، لكن أنت أيها المسيح الإله يا من زكيت العشار ورحمت الكنعانية، وفتحت أبواب الفردوس للص إفتح لي حنو محبتك للبشر، واقبلني متقدماً إليك ولامسًا إياك كمثل الزانية والنازفة الدم... أما أنا الذي يرثى له فبتجاسري على أن أقبل جسدك بجملته لا تحرقني، بل اقبلني مثل هاتيك. وأنر حواس نفسي محرقاً جراثيم خطيئتي»}}.

الباب السابع

الفصل الأول

سر الشكر ذبيحة حقيقية

إن الكنيسة الأرثوذكسية تؤمن وتعترف بأن سر الشكر الإلهي ليس سرًا فقط بل هو ذبيحة أيضًا حقيقية فعلي، بمعنى أن جسد المخلص ودمه يُناولان للمؤمنين في الشكر الإلهي غذاءً خلاصيًا ويقدمان لله ضحية عن المؤمنين. وهي ترفض رأى البروتستانت امضاد لهذا التعليم المستقيم، وتؤيد تعليمها بما يلي من براهين:

أولاً: إن مخلصنا يسوع المسيح نفسه قد علّم تلك الحقيقة. ففي أقواله النبوية عن تسليم سر الشكر أوضح أن الشركة سر وغذاء خلاصي للإنسان، حيث قال لليهود: "إِنْ أَكَلَ أَحَدٌ مِنْ هذَا الْخُبْزِ يَحْيَا إِلَى الأَبَدِ"، ثم قال حالًا: "وَالْخُبْزُ الَّذِي أَنَا أُعْطِي هُوَ جِسْمِي الَّذِي أَبْذِلُهُ مِنْ أَجْلِ حَيَاةِ الْعَالَمِ" (يو ٦:٥١). فهنا صرّح الرب بأن الخبز هو جسمه نفسه الذي سيبذله.

وعند تسليمه سر الشكر لتلاميذه يوم الخميس العظيم في العشاء الأسراري قبل الصلب لم يكتف بقوله: "خُذُوا كُلُوا. هذَا هُوَ جَسَدِي" (مت ٢٦:٢٦)، بل أضاف إلى ذلك قوله: "الَّذِي يُبْذَلُ عَنْكُمْ" (لو ٢٢:١٩). وكذلك لم يكتف بقوله: "اشْرَبُوا مِنْهَا كُلُّكُمْ، لأَنَّ هذَا هُوَ دَمِي الَّذِي لِلْعَهْدِ الْجَدِيدِ" (مت ٢٦:٢٧)، بل أضاف إليه قوله: "الَّذِي يُسْفَكُ مِنْ أَجْلِ كَثِيرِينَ لِمَغْفِرَةِ الْخَطَايَا" (مت ٢٦:٢٨)، بمعنى أن هذا السر الخلاصي هو ذبيحة غفران أمام الله. فمن هنا يُتأكد كل التأكيد أن الرب بفصله دمه عن جسده في سر الشكر الإلهي وإيضاحه بهذه الواسطة آلام جسده على الصليب وانهراق دمه من جنبه الطاهر؛ يُعلّم أن هذا السر المقام تذكارًا، كما قال لتلاميذه: "اِصْنَعُوا هذَا لِتِذْكَارِي" (لو ٢٢:١٩)، لذبيحة الاستغفار التي قُدمت على الجلجثة هو ذبيحة حقيقية فعلية أيضًا. هذا القول يتضح معناه من خدمة القداس الإلهي للقديس باسيليوس الكبير وللقديس يوحنا الذهبي الفم الذي فيه بعد أن يذكر الأسقف كلمات يسوع المسيح في تأسيس سر الشكر الإلهي يقول: «ونحن لتذكرنا هذه الوصية الخلاصية وكل ما جرى من أجلنا، الصليب والقبر... ».

ثانيًا: إن الرسل القديسين أيضًا علّموا هذه الحقيقة على هذا المعنى. فالرسول بولس كتب إلى مسيحيين كورنثوس لكي يحفضهم من عبادة الأوثان قائلاً: "انْظُرُوا إِسْرَائِيلَ حَسَبَ الْجَسَدِ. أَلَيْسَ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الذَّبَائِحَ هُمْ شُرَكَاءَ الْمَذْبَحِ؟ فَمَاذَا أَقُولُ؟ أَإِنَّ الْوَثَنَ شَيْءٌ، أَوْ إِنَّ مَا ذُبِحَ لِلْوَثَنِ شَيْءٌ؟ بَلْ إِنَّ مَا يَذْبَحُهُ الأُمَمُ فَإِنَّمَا يَذْبَحُونَهُ لِلشَّيَاطِينِ، لاَ للهِ. فَلَسْتُ أُرِيدُ أَنْ تَكُونُوا أَنْتُمْ شُرَكَاءَ الشَّيَاطِينِ. لاَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَشْرَبُوا كَأْسَ الرَّبِّ وَكَأْسَ شَيَاطِينَ. لاَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَشْتَرِكُوا فِي مَائِدَةِ الرَّبِّ وَفِي مَائِدَةِ شَيَاطِينَ" (١كو ١٠ :١٨-٢١). في هذه الآيات يقابل رسول الأمم (غير اليهود) مائدة الرب، أي مذبح المسيحيين، بمائدة الشياطين، أي مذبح الأمم، التي كانت تُقدَّم عليها ذبائح دموية حقيقية اسمًا وإن تكن حقيقتها رجسة وغير مقبولة لدى الله. بذلك يؤكد أن ما يُقدَّم على مذبح المسيحيين أيضًا في سر الشكر الإلهي هو ذبيحة حقيقية أمام الله.

وهذا الرسول نفسه في رسالته إلى العبرانيين (اليهود) يمنع المؤمنين من المسحيين عن الذبائح اليهودية التي كانت فقدت أهميتها وقوتها بعد مجيء المسيح، التي كتب فيها إليهم قائلًا: "لَنَا مَذْبَحٌ لاَ سُلْطَانَ لِلَّذِينَ يَخْدِمُونَ الْمَسْكَنَ أَنْ يَأْكُلُوا مِنْهُ" (عب ١٣:١٠)، بمقابلتة مذبح العهد الجديد بمذبح العهد القديم، الذي كان الأسرائيليون يقدمون عليه ذبائح دموية كانوا يأكلون منها. ويشهد بأن المسيحيين يقدمون لله على مذبحهم ذبيحة حقيقية غير دموية ولهم وحدهم السلطان أن يأكلوا منها.

ثالثًا: إن ذبيحة العهد الجديد كان ملاخي النبي قد أخبر بها اليهود بواسطة الذبيحة الدموية القديمة، فقد قال: "لَيْسَتْ لِي مَسَرَّةٌ بِكُمْ، قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ، وَلاَ أَقْبَلُ تَقْدِمَةً مِنْ يَدِكُمْ. لأَنَّهُ مِنْ مَشْرِقِ الشَّمْسِ إِلَى مَغْرِبِهَا اسْمِي عَظِيمٌ بَيْنَ الأُمَمِ، وَفِي كُلِّ مَكَانٍ يُقَرَّبُ لاسْمِي بَخُورٌ وَتَقْدِمَةٌ طَاهِرَةٌ، لأَنَّ اسْمِي عَظِيمٌ بَيْنَ الأُمَمِ، قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ" (ملا ١:١٠-١١). من الواضح هنا أن النبي يتكلم عن ذبيحة جديدة طاهرة ومرضية لله، لكن أية هي هذه الذبيحة؟ لا يمكن القول أن ذبائح اليهود التي يصفها النبي بأنها مرزولة وغير مرضية أمام الله وهي محصورة ضمن تخوم اليهود الضيقة، كما لا يمكن القول أن ذبائح الأمم التي ليس لها اعتبار البتة في الكتب المقدسة لكونها دنسة ومرزولة عند الله وغير طاهرة. كذلك لا يمكن الظن بأن النبي يعني الذبيحة الروحية التي يذكرها المرتل الإلهي في مزاميره، "حِينَئِذٍ تُسَرُّ بِذَبِيحَةِ الْعَدْلِ قُرْبَانًا مُحْرَقَاتٍ" (مز ٥٠:١٩)، بما أن هذه الذبيحة قدمها لله في أوقات كثيرة رجال صديقون وأتقياء منذ تأسيس العالم.

فالنبي ملاخي إذًا يُخبر عن ذبيحة جديدة لم تكن قبلاً، وعن ذبيحة منظورة مُدركة بالحس ومُعدَّة لأن تُبطل الذبائح اليهودية وتحل محلها بشكل كامل.

ولا يمكن أيضًا الظن أن النبي يعني تلك الذبيحة السامية الكلية النقاوة والمرضية لله التي قدمها المخلص عن خطايا العالم على الصليب؛ لأن هذه الذبيحة قُدمت في مكان واحد فقط وهو الجلجثة، والنبي يخبر عن ذبيحة طاهرة مُزمعة أن تُقدَّم لله في كل مكان في الأرض (وَفِي كُلِّ مَكَانٍ يُقَرَّبُ لاسْمِي بَخُورٌ وَتَقْدِمَةٌ طَاهِرَةٌ). فلا يبقى إذًا سوى الاعتراف مع الآباء القديسين بأن النبي يوجه كلامه بنوع خاص إلى سر الشكر؛ لأنه في الحقيقة هو ذبيحة جديدة، كما يذكر بولس الرسول عن يسوع بقوله: "أَخَذَ خُبْزًا وَشَكَرَ فَكَسَّرَ، وَقَالَ: خُذُوا كُلُوا هذَا هُوَ جَسَدِي الْمَكْسُورُ لأَجْلِكُمُ. اصْنَعُوا هذَا لِتِذْكَارِي كَذلِكَ الْكَأْسَ أَيْضًا بَعْدَمَا تَعَشَّوْا، قَائِلاً: هذِهِ الْكَأْسُ هِيَ الْعَهْدُ الْجَدِيدُ بِدَمِي. اصْنَعُوا هذَا كُلَّمَا شَرِبْتُمْ لِتِذْكَارِي فَإِنَّكُمْ كُلَّمَا أَكَلْتُمْ هذَا الْخُبْزَ وَشَرِبْتُمْ هذِهِ الْكَأْسَ، تُخْبِرُونَ بِمَوْتِ الرَّبِّ إِلَى أَنْ يَجِيءَ" (١كو ١١:٢٣-٢٦). وهو (أي سر الشكر) ذبيحة طاهرة مرضية لله لا تُقدم في هذا أو ذاك المكان فقط بل في كل مكان على الأرض.

رابعًا: إن الكنيسة المقدسة أيضًا قد علَّمت دائمًا أن سر جسد يسوع المسيح ودمه هو ذبيحة حقيقية وفقًا لِما تعلَّمته من تلاميذ الرب الأطهار الذين رأوا وشهدوا، وشهادتهم حق. وتعليمها واضح:

أولاً: في الخِدم الشريفة كلها، أي القداديس الإلهية، التي فيها تعترف الكنيسة بالقول على مسمع الجميع: «ونحن لتذكرنا هذه الوصية الخلاصية وكل ما جرى من أجلنا: الصليب والقبر والقيامة ذات الثلاثة أيام، والصعود إلى السماوات والجلوس عن الميامن، والمجيء الثاني المجيد»؛ أنها تُقدم له على المذبح المقدس، بالقول: «أيضًا نقدم لك هذه الذبيحة الناطقة وغير الدموية»، الذبيحة الإلهية التي قدمها هو نفسه من قِبَل جميع الشعب وعن جميعهم حيث تقول: «التي لكَ مما لكَ نُقدمها لكَ من أجل كل شيء ومن جهة كل شيء».

ثانيًا: في شهادات المجامع المسكونية التي منها:

المجمع الأول المسكوني الملتئِم في القسطنطينية في القانون ١٨ يقول: «على المائدة المقدسة يوضع حَمَل الله الرافع خطيئة العالم، ويُذبح من خدام الله ذبيحة غير دموية».

والمجمع الثالث المسكوني الملتئِم في أفسس في القسم الثاني للمجمع بالجلسة الثانية يقول: «إننا نقدم في الكأس الذبيحة غير الدموية، وهكذا نلمس الأسرار

المقدسة والمباركة، ونتقدس باشتراكنا بالجسد المقدس جسد المسيح مخلص العالم كله وبدمه الكريم».

ومجمع ترللو في قوانينه ٣ و٢٨ و٣٢ يقول: «بما أننا علمنا أن بعضًا من خدام المذبح في كنائس متفرقة يُقدم إلى المذبح عنبًا بحسب عادة تملكت عندهم، وأن خدام المذبح يمزجون مع ذبيحة القربان غير الدموية عنبًا من العنب الذي جرت العادة عندهم أن يُقدموه إلى المذبح وهكذا يوزعون كليهما معًا على الشعب. فقد أجمعنا على أن لا يصنع أحد من الكهنة هذا الأمر فيما بعد، بل يُناوَل الشعب من القربان وحده للحياة ولغفران الخطايا. وأما العنب فيجب أن يحسب الكهنة تقديمه بكورة أثمار فيباركونه على حدة ويوزع منه على الطالبين... ».

والمجمع الثاني المسكوني الملتئِم في نيقية في العمل ٦ لأعمال المجمع يقول: «لا الرب ولا الرسل ولا الآباء سموا الذبيحة غير الدموية المقدمة من الكهنة "صورةً"، بل سموها دائمًا "جسد الرب نفسه ودمه نفسه"».

ثالثًا: في شهادات آبائها ومعلميها الذين منهم:

القديس أغناطيوس الذي يقول: «إن جسد الرب يسوع واحد هو ودمه المُهراق عنا واحد: خبز واحد كُسِر، وكأس واحد وزعت للجميع، ومذبح واحد لكل الكنيسة» (رسالة إلى أهل فيلادلفيا فصل ٤).

والقديس يوسينوس الشهيد الذي يقول: «نقدم باسمه ذبيحة قد أمر الرب يسوع أن تُقدَّم وذلك في شكر الخبز، والكأس ذبيحة مُقدَّمة من المسيحيين في كل مكان على الأرض، ذبيحة طاهرة ومُرضية لله» (في خطابه مع ترفن ١٦ و١١٧).

والقديس إيريناوس الذي يقول: «إن المسيح علمنا ذبيحة جديدة للعهد الجديد، والكنيسة تسلمتها من الرسل وتُقدمها في كل المسكونة بحسب نبوة أحد الأنبياء الإثني عشر وهو ملاخي (ملا ١:١٠ و١١) الذي يقول: "ليست لي مسرة بكم"، وينذر بأن الشعب الأول (أي اليهود) سيكف عن أن يُقدم لله ذبائح وأنه في كل مكان ستُقدم ذبيحة طاهرة لاسمه الممجد في الأمم» (ضد الهرطقات ٤).

والقديس الشهيد هيبوليتوس (+ ٢٥٣م) الذي يقول: «إننا من بعد صعود المخلص نقدم بحسب وصيتة ذبيحة طاهرة وغير دموية» (في المواهب فصل ٢٦).

والقديس كبريانوس الذي يقول: «إن دم المسيح لا يُقدم ما لم يكن في الكأس خمر. وتقديس ذبيحة الرب لا يتم قانونيًا ما لم يكن قرباننا وذبيحتنا مطابقين

لآلامه... لأنه إذا كان إلهنا ومخلصنا يسوع المسيح وهو رئيس الكهنة العظيم للإله الآب قد قدم نفسه ضحية للآب وأمرنا أن نصنع ذلك لتذكاره، فلا يُتمم الكاهن على الحقيقة عمل المسيح ما لم يعمل كما عمل يسوع المسيح نفسه، أعني يُقدِّم في الكنيسة للإله الآب الذبيحة الحقيقية بتمامها تابعًا في ذلك مثال المخلص نفسه» (رسالة ٤٣).

والقديس غريغوريوس النسيسي الذي يقول: «لأن المدبر كل شيء بحسب سلطته السيدية لم ينتظر الاضطرار الناتج عن الخيانة ولا هجوم اليهود اللصوصي ولا محاكمة بيلاطس الخارجة عن الشريعة كي لا يكون شر هؤلاء بدءًا لخلاص الناس عامة وعلة له، لكنه بتدبيره قد سبق هجومهم وهو نفسه قدَّم ذاته بعمل التقديس الذي لا يُنطق به وغير المنظور من البشر قربانًا وذبيحة عنا، إذ هو كاهن وحمل الله الرفع خطيئة العالم معًا. وإن سألت متى كان هذا؟ فأجيبك إنه كان عندما جعل جسده مأكلًا بصريح العبارة وأعطاه للأكل وصارت ذبيحة الحَمَل كاملة، لأنه لو كان الجسد ذا روح لما كانت ضحية تصلح للأكل. فعندما منح تلاميذه أن يأكلوا جسده ويشربوا دمه ضحَّى جسده بوجه لا يُنطق به وغير منظور مدبرًا هذا السر كما أرادت سلطته» (على قيامة المسيح خطاب ١).

والقديس يوحنا الذهبي الفم الذي يقول: «ألسنا نحن نقدم كل يوم قرابين؟ نعم نقدم ولكننا نصنع تذكار موته. وهذه الذبيحة (التي نقدمها كل يوم) هي واحدة ولا أكثر، لأنه قُدِم مرة واحدة مثل الذبيحة التي كانت تُقَدم إلى قدس الأقداس. وكما إنه هو رسم لتلك، هكذا هذه الذبيحة رسم لها. لأننا دائمًا نقدم حَمَلًا واحدًا نفسه ولا نقدم الآن خروفًا وغدًا خروفًا آخر بل الحَمَل نفسه دائمًا، فالذبيحة إذًا هي واحدة. أو هل المُسحاء كثيرون لأن الذبيحة تُقَّدم في محلات كثيرة ؟ حاشا؛ لأن المسيح واحد في كل مكان وهو هنا بكليته جسدًا واحدًا. وكما إنه يُقدَّم في أماكن متعددة ولا يزال جسدًا واحدًا لا أجساد كثيرة، هكذا الذبيحة أيضًا واحدة هي» (في الكهنوت ٣ و٤).

وغيرهم من أباء الكنيسة القديسين يشهدون بكل صراحة في هذا مثل ترتليانوس، أوسابيوس القيصري، باسيليوس الكبير، ديديموس أسقف الإسكندرية، وإمبروسيوس، أوغسطينوس، كيرلس الإسكندري.

فذبيحة المسيح إذًا هي الذبيحة التي تُقدم في الإفخارستيا، ويوجز نقولا كباسيلاس الموقف الأرثوذكسي بقوله: «أولاً، الذبيحة ليست مجرد صورة أو

رمز، بل هي ذبيحة حقيقية. حمل الله ذُبح مرة واحدة وإلى الأبد... ولا تتمثل الذبيحة في الإفخارستيا في إراقة دم الحمل، بل بتحويل الخبز إلى الحمل المذبوح» (شرح القداس الإلهي).

الفصل الثاني

ذبيحة سر الشكر وذبيحة الصليب

أولاً: ذبيحة الصليب وذبيحة سر الشكر واحدة

إن الذبيحة التي تُقدَّم لله الآب في سر الشكر هي في طبيعتها تلك الذبيحة نفسها التي قدُمت على الصليب؛ لأن الذي يُقدَّم اليوم على المذابح المقدسة هو حَمَل الله الآب نفسه الذي قُدِّم في الجلجثة على الصليب لأجل خطايا العالم. والجسد الطاهر نفسه الذي تألم في ذلك الوقت والدم الكريم نفسه الذي أُهرق وقتئذٍ. والذبيحة أيضًا التي تُقام اليوم إنما هي تلك الذبيحة السرية نفسها التي قُدمت على الصليب، ومُقدِّمها إنما هو رئيس الكهنة العظيم الأبدي نفسه أيضًا. وكما أن المسيح كان على الصليب مُقدَّمًا ومُقدِّمًا، هكذا هو اليوم أيضًا المُقرِّب والمُقرَّب معًا والضحية والمُضحِّي وهو الفادي والمنقذ ومُخلِّص العالم الوحيد.

وقد قال يوحنا الذهبي الفم: «إن رئيس كهنتنا العظيم قدم الذبيحة التي تطهرنا، ومن ذاك الوقت إلى الآن نُقدِّم نحن أيضًا هذه الذبيحة نفسها وهذه الذبيحة غير الفانية وغير النافذة (من يَنْفَذْ) هي نفسها ستُتمَّم إلى انقضاء الدهر، حسب وصية المخلص: "اصنعوا هذا لتذكاري"... فبعملنا إذًا تذكار تلك الذبيحة التي على الصليب نتمم الذبيحة التي تممها رئيس الكهنة العظيم نفسها» (على خيانة يهوذا مقالة ١).

وهذا التعليم علَّمه أيضًا:

ثاودوريتوس بقوله: «إننا لا نقدم ذبيحة أخرى بل نتمم تذكار تلك الذبيحة الواحدة الخلاصية» (على عبرانيين ٨).

وأوغسطينوس بقوله: «وهو نفسه الكاهن المُقدِّم وهو أيضًا القربان الذي صار سرًا يوميًا في الكنيسة» (في ملك الله ١٠). وأيضًا بقوله: «ألم يُذبح المسيح دفعة واحدة؟ لكنه في سر الشكر ليس في جميع أعياد الفصح فقط، بل كل يوم أيضًا يُذبح عن الشعب. والذي يُسأل ويجاوب أن المسيح يُذبح لا يكذب البتة» (رسالة ٦٨).

أقول: {{في قول يسوع لتلاميذه يوم الخميس العظيم، العشاء الأسراري: "هذَا هُوَ جَسَدِي الَّذِي يُبْذَلُ ["διδόμενον" (didomenon)] عَنْكُمْ... هذِهِ الْكَأْسُ هِيَ الْعَهْدُ الْجَدِيدُ بِدَمِي الَّذِي يُسْفَكُ ["ἐκχυννόμενον" (ek-khinomenon)] عَنْكُمْ" (لو ٢٢: ١٩ و٢٠). قوله: "يُبذل"، أي "المبذول"،

وقوله: "يُسفك"، أي "المسفوك"، وردا في النص اليوناني اسم مفعول في حالة المضارع؛ بمعني أن "بَذْل" المخلص لجسده و"سَفْك" المخلص لدمه الحقيقِيَيْن الإلهِيَيْن كان حاصلًا لحظة إعطائهما منه لتلاميذه تحت شكل الخبز والنبيذ، وأن هذا "البَذْل" وهذا "السَفْك" في حالة إستمرار حاصل في كل وقت من تلك اللحظة إلى الآن وحتى المجيء الثاني في كل قداس إلهي. فالعشاء الأسراري قبل الصلب يوم الخميس العظيم، الذي أعطى فيه المخلص لتلاميذه جسده ليأكلوا ودمه ليشربوا، هو استباق محقق منفصل وغير منقسم عن ذبيحة الصليب، يوم الجمعة العظيمة، ومستمد منها إلى مجيئه الثاني، كما أوضح بولس الرسول بقوله: "فَإِنَّكُمْ كُلَّمَا أَكَلْتُمْ هذَا الْخُبْزَ وَشَرِبْتُمْ هذِهِ الْكَأْسَ، تُخْبِرُونَ بِمَوْتِ الرَّبِّ إِلَى أَنْ يَجِيءَ" (١كو ١١:٢٦).

كما أن بولس الرسول بقوله: "فَإِنَّكُمْ كُلَّمَا أَكَلْتُمْ هذَا الْخُبْزَ وَشَرِبْتُمْ هذِهِ الْكَأْسَ، تُخْبِرُونَ بِمَوْتِ الرَّبِّ إِلَى أَنْ يَجِيءَ" (١كو ١١:٢٦)، يؤكد إرتباط حدث يوم الخميس، الذبيحة غير الدموية، (فَإِنَّكُمْ كُلَّمَا أَكَلْتُمْ هذَا الْخُبْزَ وَشَرِبْتُمْ هذِهِ الْكَأْسَ) بحدث يوم الجمعة، الذبيحة الدموية، (تُخْبِرُونَ بِمَوْتِ الرَّبِّ إِلَى أَنْ يَجِيءَ)؛ لأن في هذا اليوم، يوم خميس العظيم، دخل يسوع المسيح معنويًا في الآلام، كما يقول متى الإنجيلي عن يسوع إنه بعد العشاء الأسراري خرج وتلاميذه إلى جبل الزيتون وفي ضيعة يُقال لها جثسماني: "وَأَخَذَ مَعَهُ بُطْرُسَ وَابْنَيْ زَبْدِي (يعقوب ويوحنا)، وَابْتَدَأَ يَحْزَنُ وَيَكْتَئِبُ. فَقَالَ لَهُمْ: نَفْسِي حَزِينَةٌ جِدًّا حَتَّى الْمَوْتِ... ثُمَّ تَقَدَّمَ قَلِيلاً وَخَرَّ عَلَى وَجْهِهِ، وَكَانَ يُصَلِّي قَائِلاً: يَا أَبَتَاهُ، إِنْ أَمْكَنَ فَلْتَعْبُرْ عَنِّي هذِهِ الْكَأْسُ، وَلكِنْ لَيْسَ كَمَا أُرِيدُ أَنَا بَلْ كَمَا تُرِيدُ أَنْتَ... فَمَضَى أَيْضًا ثَانِيَةً وَصَلَّى قَائِلاً: يَا أَبَتَاهُ، إِنْ لَمْ يُمْكِنْ أَنْ تَعْبُرَ عَنِّي هذِهِ الْكَأْسُ إِلاَّ أَنْ أَشْرَبَهَا، فَلْتَكُنْ مَشِيئَتُكَ" (متى ٢٦:٣٧-٤٢)، وكما يقول عنه أيضًا لوقا الإنجيلي: "وَجَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ وَصَلَّى قَائِلاً: يَا أَبَتَاهُ، إِنْ شِئْتَ أَنْ تُجِيزَ عَنِّي هذِهِ الْكَأْسَ. وَلكِنْ لِتَكُنْ لاَ إِرَادَتِي بَلْ إِرَادَتُكَ... وَإِذْ كَانَ فِي جِهَادٍ كَانَ يُصَلِّي بِأَشَدِّ لَجَاجَةٍ، وَصَارَ عَرَقُهُ كَقَطَرَاتِ دَمٍ نَازِلَةٍ عَلَى الأَرْضِ" (لو ٢٢:٤١-٤٤).

والقداس الإلهي في الكلام الجوهري، كلام التأسيس، يوضح أن سر الشكر هو عربون القيامة، إنه يجمع بين آلام الرب الخلاصية وبين قيامته؛ لأن الذبيحة الإلهية غير الدموية ليست منفصلة عن التجسد والفداء الإلهِيَيْن، لأنها ليست مجرد ذِكرَى، بل أنها تُقدِم تذكارات لما صنعه الرب من أجل خلاصنا، كما في الصلاة التي يرددها مُتتمم السر في قداس القديس باسيليوس الكبير، بقوله: «إرتضى ابنك الوحيد الكائن في حضنك أيها الإله الآب أن يولد من امرأة هي

والدة الإله القديسة الدائمة البتولية مريم... وقدمنا إلى معرفتك أيها الآب الإله الخالق... وطهرنا بالماء وإذ قدسنا بالروح القدس... وقد ترك لنا تذكارات آلامه الخلاصية، التذكارات التي نحن واضعوها الآن بحسب وصاياه، لأنه لما أزمع أن يخرج إلى موته الطواعي المجيد المحي... "فبعد أن أخذ خبزًا على يديه المقدستين الطاهرتين... أعطى تلاميذه الرسل القديسين قائلًا: خذوا كلوا هذا هو جسدي... وكذلك أخذ الكأس من نتائج الكرمة... أعطى تلاميذه الرسل القديسين قائلًا: اشربوا منها كلكم هذا هو دمي... هذا إصنعوه لتذكاري، لأنكم كل مرة تأكلون هذا الخبز وتشربون هذه الكأس تُخبرون بموتي وتعترفون بقيامتي". فإذ نحن متذكرون أيها السيد (الآب) آلامه الخلاصية، وصلبه المحي، ودفنه ذا الثلاثة أيام، وقيامته من بين الأموات، وجلوسه عن يمينك أيها الإله الآب، ومجيئه الثاني المجيد المرهوب».

فالذبيحة غير الدموية يوم خميس العظيم، العشاء الأسراري، تنفصل ولا تنقسم عن الذبيحة الدموية يوم الجمعة العظيمة، ذبيحة الصليب؛ لأن الذبيحة غير الدموية هي إستباق محقق ومُستمَد من ذبيحة الصليب إلى مجيئه الثاني، ذلك أن تاريخ الخلاص كله هو يوم واحد؛ لأن أعمال رسالة الرب يسوع المسيح الخلاصية من تجسده إلى صلبه وموته هي واحدة لا تنقسم عن بعضها، وإن كانت تنفصل عن بعضها بعدد بأيام حياته على الأرض. والأيقونة الأرثوذكسية البيزانطية لحدث الميلاد الإلهي توضح هذا، حيث يظهر الطفل يسوع المسيح مضطجعًا في المهد وهو مقمط بأقمطة كالأكفان للدفن منذ مولده العجائبي، بهذا تجمع هذه الأيقونة أحداث الميلاد والآلام والصلب والموت والدفن في لحظة واحدة.

ويقول الأب ليف جيلله (+ ١٩٨٠): «إن الإفخارستيا قبل أن تكون حضورًا للمسيح فينا، هي ذبيحة المسيح من أجلنا. يجدر بنا أن نتذكر، في يوم الخميس العظيم، بصورة خاصة، الصلة التي أرادها السيد بين عشاء العلية والفصح اليهودي، وبين هذا العشاء والآلام. كل الإفخارستيا هي عشاء تقدمة وذبيحة. وفي كل مرة نتناول فيها جسد المسيح المذبوح ودمه المهراق، فإننا نشترك بآلامه. نشارك ذبيحته... لقد جُمع العشاء السري والآلم بصورة لا تنفصم عراها مع أنهما حدثان منفصلان. فبينما تمثل قداديسنا "العلامة الناجعة" لذبيحة المسيح الصائرة، فإن الإفخارستيا التي تمت في العلية هي "العلامة الناجعة" لذبيحة المسيح التي ستحصل، في الموقفين توجد صلة سببية متبادلة بين العلامة والشيء المدلول اليه: في يوم الخميس العظيم تسبق العلامة التي تدل إليه، أما

بعد الجمعة العظيمة فتلحقه. كان العشاء السري عربون الآلام، ليس فقط لأنه كوَّن إطارًا ملآنه ذبيحة الصليب حقيقة تاريخية دامية. بل لأن الفصح في العلية كان يستدعي ذبح الحمل على الصليب ويجعله حتميًا. مساء الخميس أصبح يسوع ملتزمًا لأنه قدم ذاته كذبيحة ودخل معنويًا في الآلام. يسلط التأمل بهذا الأمر نورًا ساطعًا على معنى مناولتنا الإفخارستيا. كلما نشترك بعشاء الرب "نلتزم" آلامه... لكن ما هي الصلة بين الذبيحة الإفخارستيا وذبيح الصلب؟ علينا هنا أن نتقى منزلقين، الأول: أن نعتبر الإفخارستيا نوعا من الذبح الثاني، غير الحاصل على الجلجلة. والثاني: (ودون ذكر خطأ من يعتبر الإفخارستيا هي مجرد تذكار لذبيحة الصليب) أن نتجاهل كليًا وجود ذبح آني واعتبار الإفخارستيا هي مجرد تقدمة لذبيحة يوم الجمعة العظيمة. إن مفهوم العلات الناجعة الأساسي في كل ما يختص بالأسرار يُقينا هذين المنزلقين. الإفخارستيا تشير بفاعلية إلى ذبيحة الصليب، تصوره من جهة بواسطة بعض الأعمال الرمزية، ومن جهة أخرى تُحيه سريا وتُحضره بدون أن يعيش المسيح مجددًا آلامه. إذ تسمح لنا علاقة السببية المتبادلة القائمة بين الإشارة (الإفخارستيا) وإلى الشيء المشار إليه (ذبيحة الصليب) أن الذبيحة الكاملة الصائرة مرة على الصليب لا تعاد كلما أقمنا قداديسنا، ولكن هذه القداديس تُحْضر هذه الذبيحة وتجعلها قابلة للشركة في مكان ما وزمن ما. قداديسنا هي بالتالي انعكاس لذبيحة الصليب الوحيدة في مجال الصيرورة البشرية. يستطيع الله، الذي لا يرتبط بأية مؤسسة، أن يهبنا نعمة الصليب بشكل مختلف عن الذبيحة التي تقدمها الكنيسة. يبقى أن ننظر كيف أن موت يسوع على الصليب هو ذبيحة بحد ذاتها... العشاء في العُلِّية يُشكل، وكذلك خدمتنا الإفخارستيا، ليس فقط سر آلام السيد لكن سر تمجده وإستجابة الآب الظاهرة في القيامة والصعود أيضًا. إن إفخارستينا المُقامة على الأرض تجعلنا على صلة مع الإفخارستيا الأبدية السماوية... في السماء يستمر يسوع المسيح بتقديم ذاته للآب كضحية مذبوحة، مقبولة وممجدة. إن وجود جسده المصلوب هو شفاعة دائمة من أجل العالم يُظهر ملء القبول الإلهي لذبيحة الابن بتمجد الضحية، لذلك تكلم سفر الرؤيا عن الحمل المذبوح والممجد في آن في السماء. إن هذه الذبيحة السماوية إستمرار وإمتداد مجيد أزلي لذبيحة الصليب، الذي لم يكن العشاء السري سوى باكورة وتذوق مُسَبَق لها. تُدخلنا إفخارستياتنا الأرضية منذ الآن في الإفخارستيا السماوية، ولها معنى أخروي، إذ أنها متجهة نحو يوم الملكوت المسياني الذي لا يعروه مساء [فَإِنَّكُمْ كُلَّمَا أَكَلْتُمْ هذَا الْخُبْزَ وَشَرِبْتُمْ هذِهِ الْكَأْسَ، تُخْبِرُونَ بِمَوْتِ الرَّبِّ إِلَى أَنْ يَجِيءَ. (١كو ١١:

٢٦)]. إن ذبيحة العلية وذبيحة الصليب، والذبيحة السماوية والذبيحة الإفخارستيا هي ذبيحة واحدة فريدة. لا يوجد سوى ليتورجيا واحدة»}}.

ثانيًا: الفرق بين ذبيحة السر وذبيحة الصليب

إن بين ذبيحة سر الشكر المقدس والذبيحة التي قُدِّمت على الصليب فرقًا بالنظر إلى ظروفهما وطريقة تقديمهما. فإن الرب يسوع قدَّم لله الآب على الصليب جسده الكلي الطهر ودمه الكريم ذبيحة منظورة محسوسة، لكنه في سر الشكر لا يُقدمهما حسيًا بل تحت أشكال الخبز والنبيذ. هناك هو نفسه قدَّم الذبيحة الاستغفارية إذ هو رئيس الكهنة العظيم، وهنا هو أيضًا نفسه يقدِّم تلك الذبيحة عينها لكنه لا يعمل ذلك بشكل محسوس بل بواسطة رعاة الكنيسة.

هناك قُدِّمت ذبيحة حقيقية بذبح الحَمَل وانهراق دمه على الصليب؛ لأن الرب يسوع تألم آلامًا حقيقية وأهرق دمه وذاق موتًا جسديًا. لكن اليوم بما أن المسيح قام من الأموات ولا يموت بعد ولا يسود عليه الموت، كما كتب بولس الرسول: "عَالِمِينَ أَنَّ الْمَسِيحَ بَعْدَمَا أُقِيمَ مِنَ الأَمْوَاتِ لاَ يَمُوتُ أَيْضًا. لاَ يَسُودُ عَلَيْهِ الْمَوْتُ" (رو ٦:٩)، تُقدِّم الذبيحة في سر الشكر باستحالة سرية؛ وهي استحالة الخبز والنبيذ بالروح القدس إلى جسد يسوع المسيح ودمه الكريم بلا آلام ولا هرق دم وموت. لذا قد سُميَّت هذه الذبيحة "ذبيحة غير دموية"، وإن تكن لتذكار آلام حَمَل الإله الآب وموته؛ لأن يسوع في العشاء الأسراري كما يقول لوقا الإنجيلي: "أَخَذَ خُبْزًا وَشَكَرَ وَكَسَّرَ وَأَعْطَاهُمْ قَائِلاً: هذَا هُوَ جَسَدِي الَّذِي يُبْذَلُ عَنْكُمْ. اِصْنَعُوا هذَا لِتِذْكَارِي. وَكَذلِكَ الْكَأْسَ أَيْضًا بَعْدَ الْعَشَاءِ قَائِلاً: هذِهِ الْكَأْسُ هِيَ الْعَهْدُ الْجَدِيدُ بِدَمِي الَّذِي يُسْفَكُ عَنْكُمْ" (لو ٢٢:١٩ و٢٠).

ثم بذبيحة الصليب حصل الخلاص لكل الجنس البشري ووُفيَّ عدل الله عن خطايا العالم بأجمعه. وأما الذبيحة غير الدموية فإنها تستعطف الله ليصفح عن خطايا الذين قُدِّمت لأجلهم على الخصوص وتأتيهم بأثمار خلاصية إذا تقدموا إلى تناولها باستحقاق.

وأخيرًا يُقال أن ذبيحة الصليب قُدِّمت عن الجنس البشري كله مرة واحدة فقط في الجلجثة. لكن الذبيحةغير الدموية منذ برهة تأسيسها تُقدَّم وستُقدَّم إلى حضور يسوع المسيح الثاني، كما يقول بولس الرسول: "فَإِنَّكُمْ كُلَّمَا أَكَلْتُمْ هذَا الْخُبْزَ وَشَرِبْتُمْ هذِهِ الْكَأْسَ، تُخْبِرُونَ بِمَوْتِ الرَّبِّ إِلَى أَنْ يَجِيءَ" (١كو ١١:٢٦)، في كل أنحاء العالم وعلى مذابح لا تُعد ولا تحصى لأجل خلاص البشر.

بالإجمال إذا قوبلت ذبيحة الصليب بالذبيحة غير الدموية، تُرى الأولى بذارًا وأصلًا والثانية شجرة ثابتة على ذاك الأصل المتين ومستريحة بجملتها عليه ومغتذية منه غذائها الحيوي وآتية بأثمار الحياة الخلاصية. فيستنتج مما تقدم أن الذبيحتين كلتاهما متحدتان بلا انقسام، وهما ذبيحة واحدة لا أكثر وليس فيهما خاصة جوهرية تقتضي قَسْم إحداهما عن الأخرى. وهما شجرة الحياة المباركة التي غرست سابقًا من الله في الجلجثة، والآن غطَّت أغصانها السرية كل كنيسة المسيح وتُغذي جميع الذين يطلبون الحياة الأبدية بأثمارها الخلاصية.

ثالثًا: الأوصاف الخاصة لسر الشكر

إن الشكر المقدس الذي هو في جوهره ذبيحة حقيقية نحو الله هو بحسب أوصافه "ذبيحة تسبيح وشكر"، و"ذبيحة استغفار" أيضًا تُقدَّم عن الجميع أحياءً كانوا أو أمواتًا.

أما كون سر الشكر "ذبيحة تسبيح وشكر"، فيظهر جليًا مما يأتي:

أن يسوع المسيح مخلصنا عندما أسس الذبيحة غير الدموية كما يقول لوقا الإنجيلي: "أَخَذَ خُبْزًا وَشَكَرَ وَكَسَّرَ وَأَعْطَاهُمْ قَائِلاً: هذَا هُوَ جَسَدِي الَّذِي يُبْذَلُ عَنْكُمْ. اِصْنَعُوا هذَا لِتِذْكَارِي. وَكَذلِكَ الْكَأْسَ أَيْضًا بَعْدَ الْعَشَاءِ قَائِلاً: هذِهِ الْكَأْسُ هِيَ الْعَهْدُ الْجَدِيدُ بِدَمِي الَّذِي يُسْفَكُ عَنْكُمْ" (لو ٢٢:١٩و٢٠)، فبشكره برهن أن الذبيحة هي "ذبيحة شكر".

لهذا من ذلك الوقت إلى الآن جرت العادة في الكنيسة الأرثوذكسية أن يذكر خادم الذبيحة غير الدموية في الصلاة قبل أن يبارك قرابين غير الدموية (الخبز والنبيذ) التي على المائدة المقدسة إحسانات الله العظيمة للبشر، وهي خلقه الإنسان وعنايته الفائقة الوصف التي حصل عليها منذ سقطته وتدبير تجسد يسوع المسيح لخلاص العالم، كما يمجد ويسبح ويشكر الإله الآب وابنه الوحيد والروح القدوس، وذلك بقراءته ما نقله وسلمه كتابةً القديس باسيليوس الكبير والقديس يوحنا الذهبي الفم في ترتيب خدمة القداس الإلهي حينما تُقدَّم لله الآب الذبيحة غير الدموية على المائدة المقدسة، ويرسل تسبيحًا قائلاً: «بحق وواجب نسبحك ونباركك ونحمدك ونشكرك... أنت الإله غير الموصوف... أنت وبنك الوحيد وروحك القدوس... أنت أخرجتنا من العدم إلى الوجود، ولما سقطنا عُدت فأقمتنا وما برحت تصنع كل شيء حتى أصعدتنا إلى السماء... ونشكرك من أجل كل الإحسانات الصائرة إلينا التي نعلمها والتي لا نعلمها... ونشكرك أيضًا من أجل هذه الخدمة التي ارتضيت أن تتقبلها من أيدينا... ».

ومن عصر الرسل القديسين إلى الآن تُقدَّم الذبيحة غير الدموية مع هذا التمجيد والشكر كما يُؤكَّد ذلك من خِدَّم القداس القديمة كخدمة يعقوب الرسول وخدمة مرقس الرسول. وكما يتبيَّن ومن اعتراف القديس يوستينوس الشهيد، بقوله: «ومن بعد أن نكفَّ من الصلوات نُقَبل بعضنا بعضًا بقبلة مقدسة. وبعد ذلك يُقدَّم إلى متقدم الأخوة خبز وكأس فيه ماء وممزوج (نبيذ) فيأخذهما ويُرسل تمجيدًا لأبي الكل باسم الابن والروح القدس ويصنع شكرًا طويلًا لتكون هذه مستحقة القبول عنده. وبعد إتمامه الصلوات والشكر يقول جميع الشعب الحاضر: آمين» (خطابه إلى تريفن ٤).

أما كون سر الشكر "ذبيحة غفران" أو "ذبيحةاستغفار" أيضًا عن الأحياء والأموات فيتبيَّن مما يأتي:

فيما سبق ذُكر أن الذبيحة غير الدموية هي واحدة مع الذبيحة التي على الصليب نفسها التي قُدمت عن خطايا جميع العالم، فتكون إذًا الذبيحة غير الدموية ذبيحة استغفار عن خطايا العالم وخصوصًا الذين قدمت لأجلهم. وهذه الصفة التي توصف بها الذبيحة غير الدموية تتضح بكل صراحة من كلام المخلص عند تأسيسه سر الشكر، فإنه عندما أعطى جسده لتلاميذه قال: "خُذُوا كُلُوا. هذَا هُوَ جَسَدِي" (مت ٢٦:٢٦)، ولما قدم لهم دمه قال عنه: "هذَا هُوَ دَمِي الَّذِي لِلْعَهْدِ الْجَدِيدِ الَّذِي يُسْفَكُ مِنْ أَجْلِ كَثِيرِينَ لِمَغْفِرَةِ الْخَطَايَا" (مت ٢٦:٢٨).

لهذا يُرى أن الكنيسة منذ بداية تاريخ المسيحية إلى الآن تُقدم الذبيحة غير الدموية من أجل خلاص جميع المؤمنين أحياءً وأمواتًا، ويتضح ذلك من شهادات آباء الكنيسة ومعلميها الأقدمين:

فالقديس ترتليانوس يقول: «إن الذبيحة غير الدموية تُقدَّم عن الأحياء» (إلى سكابولا فصل ١١). وفي قول آخر له: «إننا نصنع تقدمات في أيام معينه من السنة عن الأموات وعن المولودين» (في وحدة الزيجة فصل ٩).

والقديس كبريانوس يقول: «إنها تُقدَّم عن الأموات» (رسالة ٦٦).

والقديس كيرلس الأورشليمي يدعوها صراحة قائلاً: «ذبيحة استغفارية» (في الأسرار ٦). وهو بهذا التصريح نفسه يعترف اعتراف الإيمان الآتي بقوله: «لكننا نُقدَّم المسيح مذبوحًا لأجل خطايانا مستغفرين الإله الآب المحب البشر عنا وعنهم» (في الأسرار ٥). وفي موضع آخر يقول: «بعد ذلك نذكر السابق رقادهم، أولاً رؤساء الآباء والأنبياء والرسل والشهداء لكي يقبل الله طلباتنا بصلواتهم وشفاعاتهم» (في الأسرار ٥).

والقديس يوحنا الذهبي الفم كتب عن ذلك في محلات كثيرة، ومما قاله: «لأنه لم يُرتَّب هذا الترتيب على بسيط الحال ولا باطلًا نذكر المتوفين على الأسرار الإلهية ونأتي متضرعين من أجلهم للحَمَل الموضوع الرافع خطيئة العالم، بل لكي تحصل من ذلك تعزية لهم. ولا عبثًا يصرخ الواقف على المذبح عند تتميم الأسرار المرهوبة من أجل جميع الراقدين بالمسيح والذين يصنعون التذكار من أجلهم، ولو لم يُقَم التذكار من أجلهم لما قيلت هذه الكلمات. لأن أعمالنا ليست خيمة حاشا بل هي مُقامة كلها بحسب ترتيب الروح... فلا يثقُل علينا إذًا في مساعدتنا الراقدين بتقديمنا الصلوات من أجلهم؛ لأن التنقية العامة لكل المسكونة هي حاضرة. ولهذا نتجاسر أن نطلب من أجل المسكونة وقتئذٍ وندعو الراقدين والشهداء والمترفين والكهنة» (على كورنثوس الأولى مقالة ٤١). وفي محل آخر يقول: «لم يُشَرَّع عبثًا من الرسل إقامة تذكار الراقدين حين تتميم الأسرار المرهوبة لأن الرسل يعرفون أن للراقدين ربحًا عظيمًا ونفعًا جزيلًا من ذلك» (على رسالة أهل فيلبي مقالة ٣).

كما يتضح أيضًا ذلك من تراتيب جميع الخِدَّم:

١- خدمة يعقوب الرسول، التي يُذكر فيها بعد تبريك القدسات يقول القائم على الخدمه هذه الصلاة: «نُقدم لك يا رب هذه الذبيحة المرهوبة وغير الدموية لكي لا تصنع معنا بحسب خطايانا ولا تجازينا بحسب مآثمنا، لكي تُطهرنا من مآثمنا برحمتك التي لا تُحد وحنوك الذي لا يوصف».

٢- أقول: {{خدمة قداس مرقس الرسول حيث القائم على الخدمه بعد صلاة التقدمة يذكر الأحياء، بقوله: «لك يُقدم البخور والذبيحة الطاهرة ولاسمك القدوس، كذبيحة وتقدمة في كل مكان. ونطلب إليك يا رب متضرعين، أيها الصالح المحب البشر أذكر الكنيسة المقدسة الجامعة الرسولية في كل العالم، وكل شعبك، وكل رعيتك. إملأ قلوبنا من السلام السماوي، وامنحنا أيضًا السلام في هذه الحياة. أرشد بسلام كامل المجامع الكنسية، جميع الشعوب، الحكام الذين اخترتهم وجيوشهم، ودخولنا وخروجنا. أعطينا يا ملك السلام سلامك لأنك منحتنا كل شيء، واجعلنا يا الله في وئام ومحبة لأننا لا نعرف إله سواك ولا نعرف اسمًا غير اسمك، واعط نفوسنا حياة وألا يقوى موت الخطيئة علينا وعلى كل شعبك... ». ثم يذكر الأموات، بقوله: «أرح أيها الربُّ الهنا نفوس آبائنا وإخوتنا الذين رقدوا على الإيمان بالمسيح، أذكر الأجداد الذين منذ الدهر والآباء ورؤساء الآباءة والأنبياء والرسل والشهداء والمعترفين والأساقفة

والأبرار والصديقين وكل روح توفي على الإيمان بالمسيح والذين نحتفل بتذكارهم اليوم منهم، وأبانا القديس مرقس الرسول والإنجيلي الذي أرانا طريق الخلاص. إفرحي يا ممتلئة نعمة الرب معك مباركة أنت في النساء ومبارك ثمر بطنك، لأنك ولدت مخلص نفوسنا»}}.

٣- خدمة القداس الإلهي للقديس باسيليوس الكبير وللقديس يوحنا الذهبي الفم. فبعدما تُقدم الذبيحة غير الدموية يذكر القائم على اتمام السر الأحياء، بقوله: «لكي يكونا للمتناولين، لنباهة النفس، ومغفرة الخطايا، وشركة روحك القدوس، وكمال ملكوت السماوات، والدالة لديك، لا لمحاكمة ولا لإدانة». ثم يذكر السابق رقادهم، بقوله: «وأيضًا نقرّب لك هذه العبادة الناطقة من أجل الّذين توفّوا على الإيمان: الأجداد، والآباء، ورؤساء الآباء، والأنبياء، والرسل، والكارزين، والمبشّرين، والشهداء، والمعترفين، والنساك، وروح كل صدّيق توفي على الإيمان. وخاصة من أجل الكلية القداسة، الطاهرة، الفائقة البركات، المجيدة، سيدتنا والدة الإله الدائمة البتولية مريم. ومن أجل القديس النبي السابق يوحنّا المعمدان، والقديسين المجيدين الرسل الجديرين بكلّ مديح، والقديس (فلان) الذي نقيم تذكاره اليوم وجميع قديسيك». والكنيسة تصنع ذلك لا بقصد استعطاف الرب من أجلهم، بل لكي يستمع الله بواسطة توسلاتهم وشفاعاتهم الصلوات والتضرعات التي تقدمها حين تتميم السر الإلهي عن الأحياء والأموات، وهذا يتضح من نهاية هذه الصلاة إذ يقول القائم على السر: «الذين بطلباتهم افتقدنا يا الله. واذكر جميع الراقدين على رجاء قيامة الحياة الأبدية، وأرحهم يا إلهنا حيث يشرق نور وجهك».

إن "ذبيحة غفران" أو "الذبيحة الاستغفارية" هي أيضًا "ذبيحة شفاعة ووساطة"؛ فكما أن الذبيحة غير الدموية هي ذات قوة لأن تستعطف الله وتستميله إلينا، هكذا هي أيضًا ذات قوة لأن ينال بها كل مَنْ يتناول منها من الله كل إحسان. ولذلك عندما تتممها الكنيسة المقدسة، فضلًا عن إنها تطلب من الله غفران الخطايا والخلاص للأحياء والأموات، تطلب أيضًا نوال كل خير روحي وجسدي موافق لعيشة الإنسان الحسنة وحياته، وذلك بقول القائم على السر في القداس الإلهي: «وأيضًا نطلب إليك، يا ربّ، أن تذكر جميع الأساقفة المستقيمي الرأي المفصّلين كلمة حقك باستقامة، وجميع الكهنة و جميع الكهنة والشمامسة الخدّام بالمسيح وكل طغمة كهنوتيّة ورهبانيّة. وأيضًا نقرب لك هذه العبادة الناطقة من أجل المسكونة، ومن أجل كنيستك المقدسة الجامعة الرسولية، ومن

أجل العائشين بالطهارة والسيرة الحميدة، ومن أجل حكامنا. أعطهم يا رب أن يكون عهدهم سلاميًا، فنقضي نحن أيضًا في ظلّ أمنهم حياةً هادئةً مطمئنةً في عبادة حسنة ووقار... أُذكر يا رب المدينة (أو الدّير) التي نحن قاطنون فيها، وكلّ مدينةٍ وقرية والمؤمنين القاطنين فيها. أذكر يا رب المسافرين برًّا وبحرًا وجوًّا، والمرضى والمتألّمين والأَسرى، وهَب لهم النّجاة. أُذكر يا رب الذين يُقدّمون الأثمار والذين يصنعون الإحسان في كنائسك المقدّسة، والذين يفتقدون المساكين، وأرسل مراحمك علينا أجمعين».

وذلك كما كتب أيضًا القديس كيرللس الأورشليمي: «ثم بعد أن تُتمَّم الذبيحة الروحية والعبادة غير الدموية نضرع إلى الله تجاه ذبيحة الاستغفار هذه من أجل سلامة الكنائس عمومًا، ومن أجل حسن ثبات العالم، ومن أجل الملوك (الحكام)، ومن أجل الجنود والمحارِبين معهم، ومن أجل الذين في الأمراض، ومن أجل الذين في الشدائد. وبالإجمال من أجل جميع المحتاجين إلى المساعدة، فنطلب نحن جميعًا ونقدم هذه الذبيحة» (في الأسرار ٥).

الـخاتـمة

نتائج التناول من سر الشكر

إننا نتناول في سر الشكر الإلهي جسد ربنا نفسه ودمه نفسه ونستحق أن نحوى في داخلنا المسيح الإله المتأنس كله. لذا يجب علينا أن نكون بأكثر انتباه وأكثر وقار حينما نستعد لهذا السر الذي هو مرهوب جدًا ومخوف. كما يجب علينا أن نكون بأكثر ورع وإيمان ومحبة نقدمهم حينما نشترك بالسر. وأيضًا يجب علينا بكثير من الشعائر الحية (كالصوم والصلاة) والاهتمام العظيم أن نحفظ في أنفسنا هذه المنحة الشريفة ذخيرة لحياتنا الأبدية وخلاصنا.

مطرانية طنطا وتوابعها
للروم الأرثوذكس